

المكتبة

زوران جيفكوفيتش

ترجمة نواف الميموني
تقديم طارق الخواجي

مكتبة
الفكر
الجديد



المكتبة



زوران جيٺڪوڦيٽش

المكتبة

ترجمة

نوف الميموني

تقديم

طارق الخواجي



مقدمة الطبعة العربية

في عام 2002 كتبت ومن ثم نشرت رواية المكتبة التي تدرج تحت تصنيف « روايات الموزاييك ». وبعد ذلك بعام، أي في سنة 2003م كانت لها حظوة الفوز بجائزة «أدب الخيال العالمي» (World Fantasy Award) عن فئة الرواية القصيرة وذلك في مؤتمر أدب الخيال العالمي في العاصمة الأمريكية واشنطن. كانت تلك المرة الثانية في تاريخ هذه الجائزة المرموقة التي يكون الفوز بها من نصيب رواية لم تكتب بالإنجليزية.

بعد ذلك، أصبحت المكتبة أكثر أعمالاً ترجمت حتى الآن. وأحد أشهر الأعمال الأدبية الصربية في مطلع القرن الحادي والعشرين. حيث تم ترجمتها إلى ست عشرة لغة. كان النصيب الأكبر منها في البرتغال بعدد 3 طبعات. وفي تركيا طبعت الرواية مرتين. كما تسنى لها أن تنشر في كلٍ من الولايات المتحدة الأمريكية، إسبانيا، كرواتيا، المملكة المتحدة، الدنمارك، بولندا، سلوفينيا، اليابان، إيطاليا، ألمانيا وكوريا الجنوبية.

إلى جانب ذلك، كان للمكتبة نصيب من الحضور على المسرح، حين قدم فنانون عروضاً مسرحية في كلٍ من البرتغال وإيطاليا مستوحاة منها. كما أدرجت ضمن قائمة الكتب الأدبية المفروضة على الطلاب

في البرتغال، وتمت الكتابة عنها ونقدها باستيفاء في كبريات المجالات الأدبية. إلى جانب ذلك كله كانت المكتبة موضوعاً لرسالة دكتوراة. يشرفني كثيراً اختيار دار أثر في المملكة العربية السعودية كتابي هذا لترجمته إلى اللغة العربية، والمكتبة حسبها أعرف هي أولى الكتب الأدبية الصربية المعاصرة التي تترجم في العالم العربي، وهي بالتأكيد أول عمل من أعمالي ينقل إلى اللغة العربية، إحدى أعظم اللغات في العالم. إن أعظم شرف يحظى به أي أديب هو مدّ جسور التواصل بين الثقافات المختلفة. والمكتبة هي إسهامي المتواضع في بناء الجسر الأول. أتمنى أن يستمتع القراء في المملكة وبقية العالم العربي بروايتي الموزاييكية هذه. وآمل أن تلاقي أصدقاء إيجابية لدى عموم القراء وتتابع دار أثر نشر بقية أعمالي الأدبية.

زوران

بلغراد، 2 يونيو 2015

إلى موريل... مع حبي

عندما تأكل من مكتبتك ستجدها أمامك

طارق الخواجي

أحياناً لا يكفي كاتبٌ أن يتخلى عن المنطق لصنع عالمه المتخيل، يجدر بالقارئ هو الآخر أن يتخلى تماماً عن المنطق للوصول إلى عالم ذلك الكاتب، ليجد نفسه على الأقل قادراً على البروز ولو قليلاً، في ذلك العالم الذي يتفق أصحاب المنطق على حظوة العيش فيه لو كان حقيقياً ومتفقاً مع شروطهم المترمّته، والتي تجعل الحياة صعبة لولا فسحة الأمل بأن هناك من يتنفس عقب بورخيس بعد رحيله بعقدين.

عندما وقعت رواية المكتبة بين يدي، مترجمة على يد المترجمة الشابة نوف الميموني، شرعت مباشرة في قراءتها، كعادة كل انتظار ينتهي بلقاء يحوي من التملك أكثر مما يحوي من الامتنان، لكن مع كل قطعة من الفسيفساء التي يبدعها زوران جيفكوفيتش، لخلق لوحته الباهرة في النهاية، فإن الامتنان يتسرب إليك مبكراً ومبكراً جداً منذ المكتبة الافتراضية التي نجد أنفسنا قرييين وبعيدين منها في الآن نفسه، إنها عالم قريب جداً إلينا، لكن جيلاً هائلاً لا يقرب من هذه العوالم إلا

لماماً، للضرورة التي تفرضها التقنية اليوم، لكن هذا الموازيك الذي يجسد حيناً وولعاً هائلاً بالكتب والمكتبات قادر على فرض حضوره اليوم في الأجهزة الكفية واللوحية ومحركات البحث التي تتيح فرصاً كبيرة لتدشين ولو فخري لمكتبة بابل السداسية، ولروايات وهمية مثل الدنو من المعتصم، وحتى حل أحجيات مثل لعبة الحجلة لكورنثار، وإدراك الخط الفاصل بين الحياة والموت عند بيدرو بارامو، إنها الفرصة التي تفترضها القدرة الهائلة اليوم على الربط، والتي قد تستنزف منا أياماً وليال لجمع شتات كل هذا التراكم الحضاري العريض من الفنون والآداب، لكن جيفكوفيتش يقترح لنا فرصة نادرة مثل جمع تاريخ هذا كله في كتاب نجده كل يوم حاضراً أمامنا، وكل ما علينا فعله هو رصه في المكان الأثير إلى قلوبنا، أو ربما في قلوبنا نفسها، هكذا نجد أنفسنا مدفوعين بشغف يتجاوز المنطق والأعراف في المكتبة المنزلية، التي لا تبعد إلا خطوات قليلة عن المكتبة الليلية، التي يتم فيها تداول سجلاتنا الهائلة التي تؤرخ لكل شيء في حياتنا، دون الحاجة لحبل دون خوزيه حيث تفصل سجلات الأحياء عن سجلات الأموات الذين ربما نسيناهم، أولئك القابعون في غيب لا نعلمه، نقترح لهم اقتراحات نعيم وعذاب، دون معرفة انتكاس المنطق أو اعتداله هناك، حيث توجد مكتبة الجحيم التي تأتي هي الأخرى كاقترح لا يمكن أن يصدر إلا عن إيتالو كالفيينو أو إدواردو غاليانو وسيء الذكر كزافييه ميستر!

جيفكوفيتش لا يرعوي عن إدهاشنا في كل منعطف من لوحته المصممة بطيف لون واحد يتعدد ليصنع قوس مطره الخاص، تحية إجلال باهرة للحياة التي تنبعث من الكتب لتعيش خارجها، ندخل الجحر نظارد الأرنب الثرثار، لكننا نخرج متبوعين برائحة عطر تم تقطيره على مدى عشرين عاماً، أمام المكتبة النفيسة التي تظل عاجزة عن الاكتمال، لأن كتاباً واحداً فقط يصر على الظهور فيها كل ليلة ما عدا ليلة اكتمال القمر، حيث يخفي النور الساطع للبدر كل الشوائب في مكتباتنا التي نرص فيها غنائمنا بعد كل غزوة مباركة لمكتبة لا تطاردنا فيها عين البائع الذي يقترح دائماً ذلك الكتاب الذي يفسد مكتبتنا النفيسة، حيث لا أمل للتخلص منه سوى التهامه كاملاً، لنبلغ اليقين ونكون جزءاً من اللوحة التي بدأها جيفكوفيتش من حاسوبه الخاص إلى معدته المروضة جيداً، حاملين معنا كتاباً واحداً فقط، والذي يمكننا القول عنه بفخر أنه أصغر مكتبة في العالم، ليس كتاب الرمل حتماً، ولا كتاب أرسطو المفقود عن الكوميديا، ولا مخطوطات أبي حيان التوحيدي التي أحرقتها في آخر عمره، يمكننا فقط أن نقترح ونتمنى أن نجد الكتاب الذي اقترحنه في أذهاننا ماثلاً أمامنا في كتابنا الأثير هذا.

حصل جيفكوفيتش على شهاداته الجامعية تبعاً حتى الدكتوراه من جامعة بلغراد في صربيا في نظرية الأدب والخيال العلمي مقدماً رسالته في أعمال آرثر سي. كلارك، ومنذ منتصف السبعينيات وحتى أوائل

التسعينيات، ترجم زوران جيفكوفيتش ما يقارب ٧٠ كتاباً في الخيال العلمي، ونشر ٢٠٠ كتابٍ من خلال الدار التي أسسها في بلغراد تحت مسمى منشورات بولاريس - بولاريس هو نجم القطب الشمالي -، وكان وراء بعض برامج الخيال العلمي وكان هو المضيف في المسلسل التلفزيوني الصربي الذي أطلق عليه اسم «شاشة متخمة بالنجوم».

فجأة بعد منتصف التسعينيات توقف جيفكوفيتش عن الكتابة في الخيال العلمي مطلقاً، ولم يعد لذلك حتى هذه اللحظة، وقد تكرر سؤاله عن ذلك مراراً، وكانت ردوده على الدوام تدور حول إيمانه بأنه كاتب ولا معنى لأن يوصد نفسه في صنف دون غيره، وعلى مدى ما يقرب عشرين عاماً منذ ذلك الوقت نشر جيفكوفيتش ٢٠ كتاباً، ترجمت إلى أكثر من ٢٠ لغة وحصدت انتشاراً فيها يتجاوز ٧٣ طبعة في مجموعها، وهو ما يعتبر نجاحاً هائلاً لكاتب من خارج الولايات المتحدة الأمريكية، إذ عرض عليه أن يغير اسمه إلى دونالد ليفينغستون لكي يضمن النجاح هناك، لكنه رفض، ليصبح اسماً بارزاً بعد فوزه بجائزة الفانتازيا العالمية عام ٢٠٠٣م، عن عمله «المكتبة»، التي تقدمها دار أثر في خطوة تستحق الاحتفاء، على أمل أن تجد أعماله الأخرى مثل «الدائرة الرابعة» و«الجسر» فرصة قريبة للنشر أيضاً، كونها أعمال تداولها النقاد بالمديح والإطراء وحصدت رواجاً جماهيرياً ملحوظاً.

ما يجعل نص «المكتبة» مختلفاً هو الغرض الذي تناقشه، إنها نص خالص

في مديح الكتب والمكتبات يتعالى على النقاشات الضارية اليوم حول جدواها كضرورة في بيوتنا وفي مدارسنا ومدننا، لكننا بعد الانتهاء من هذا العمل الذي يقرأ مراراً، نتمنى أن نقع على أعمال أكثر، علّنا نطعم بها مكتباتنا لتصبح نموذجاً للمكتبة النفيسة، ونضمن لهذا الكتاب قدراً متواضعاً من الخلود. لأننا هكذا بالتحديد كما يقول ألبرتو مانغويل، نمارس من خلال القراءة طقس انبعاث، مرحبين بالمكتبة كنص جديد إلى كوننا العربي، مكتبتنا العربية.

المكتبة الافتراضية

لا يخلو البريد الإلكتروني من العيوب. رغم أن مزودي خدمة الإنترنت يحاولون جاهدين حمايتنا من تلقي الرسائل غير المرغوب فيها، لكن بلا جدوى. فمتى ما فتحت رسائلي الواردة على شاشة حاسوبي أجد أمامي رسالة واحدة على الأقل أرسلها شخص مجهول. وقد أجد أكثر من رسالة. أقصى عدد وصلني كان ثلاث عشرة رسالة دعائية، مُرسلة خلال بضع ساعات من جلوسي أمام حاسوبي.

وعندما حدث ذلك بلغ بي الانزعاج حد تغيير عنوان بريدي الإلكتروني، رغم ما سببه لي من تعطيل. وأعطيت عنواني الجديد إلى قلة من الناس، لكن تلك الخطوة لم تجد نفعاً أيضاً. ما زالت هذه الرسائل المزعجة تصلني. شكوت ما يحدث إلى مزودي الخدمة الذين أتعامل معهم، فاعترفوا اعترافاً ملتويّاً أنهم لا يملكون حلاً لهذا الأمر. ونصحوني بأن أحو أي شيء لا يثير اهتمامي، خاصةً أن فيروسات الحاسوب الخطيرة غالباً ما تنتشر عبر الرسائل الإعلانية.

لم تكن نصيحتهم ذات قيمة، حيث إنني أسمح فعلاً لجميع الرسائل الإعلانية التي تردني، وإن لم أكن أعلم وقتها بعلاقتها بنشر الفيروسات. كنت في البداية أقرأها وكلي حيرة من سبب وصولها إليّ، لكن بعد أن عرفت ما طبيعتها، أخذت أسمح كل رسالة مجهولة المصدر دون إبطاء. لم أكن حتى أمنحها لمحة سريعة، رغم ما يتكبده مرسلوها من جهود

عظيمة لجذب انتباهي بالعناوين الصارخة الواضحة، والرسومات المزخرفة التي تروج عروضًا لن تتكرر ولن تعوض.

أحد تلك العروض مثلًا يعدني بالثراء ما بين ليلة وضحاها، إن أنا استثمرت مالي عبر وكالة ذات اسم جذاب، مقرها إحدى دول المحيط الهادي التي لم أسمع عنها من قبل. وأخرى تدعوني لأن أصبح مبشرًا في أي كنيسة أختارها، مع التصريح لي بعقد طقوس التعميد، ومراسم الزواج والجنائز. وثالثة تدعي أنها ستمنحني الفرصة في أن أدير عقارب الساعة إلى الوراء خمسة وعشرين عامًا، بغض النظر عن سني، باستعمال علاج طبيعي حديث يطيل العمر. كما تلقيت فرصة فريدة لا مثيل لها لتحصيل حقي من أموال التعويضات بأمر المحكمة، إن كانت لدي مطالبة من هذا النوع، نظير عمولة تافهة لا تتجاوز 49% بالمائة.

وأستطيع إشباع إدماني على لعب القمار، في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار، باللعب في كازينو افتراضي مضمون الأمانة. وآخر عرض وأعربه، هو ما وصلني من أنني أستطيع الحصول على مليونين ونصف مليون عنوان بريد إلكتروني نشط ومعتمد، أستطيع أن أرسل إليها ما أشاء وقتما أريد، مقابل مبلغ زهيد يُدفع خفية.

ربما كان سيكون مصير الرسالة التي بدأت هذه الحكاية سلة المهملات مع مثيلاتها، لولا أن اقتضاها الشديد جعلني أقرأها بلا قصد مني. كانت خلفية الرسالة سوداء خالية من الزخرفة. وبأحرف صفراء كبيرة احتلت السطر الأول، كُتبت «المكتبة الافتراضية»، والشعار تحتها

يقول «لدينا كل شيء!» بأحرف زرقاء صغيرة جدًا. وهذا أمر بحد ذاته غريب، لأن هذه الرسائل تتخذ عادةً لهجة محفزة، مثيرة للأعصاب. كانت تلك من أفضع المبالغات التي رأيتها على صفحات الإنترنت. صحيح؟! كل شيء!؟

هذا قول لا تجرؤ أكبر المكتبات في العالم على ادعائه. لقد غاب عن ذهن من ابتدع هذه الدعاية عدد الكتب المنشورة خلال الخمسة آلاف عام الماضية. لم يفلح أحد قط في إنشاء مكتبة بهذه الضخامة وجمع كتبها في مكان واحد، حتى لو أسقطنا من الحساب تلك الكتب التي اختفت وابتلعها النسيان. وهذه الكلمة... افتراضية! لو أنهم يقصدون المعنى الحقيقي لعبارة «المكتبة الافتراضية»، فهذا يعني أن تكون مكتبة مؤلفة من كتب إلكترونية، والإنترنت حافل بمواقع عديدة تضم إصدارات إلكترونية. وأنا أزورها من وقت لآخر. لكن الكتب التي تعرضها هذه المواقع قليلة جدًا، ولا يتجاوز عددها بضع مئات من المؤلفات... قطرة في محيط إن قارناها «بكل شيء» التي تجزم هذه المكتبة بتوافرها لديها. ومن يجرؤ أن يطير به الأمل، فيظن أنه يمكن أن ينقل هذا الكم الهائل من الورق إلى الشاشة. ومن سيكلف نفسه هذا العناء والمشقة!؟

كنت واثقًا أنها حيلة لا محالة، لكن فضولي منعني من أن ألحق الرسالة بالأخريات. ولو كانت الرسالة عن أي شيء غير الكتب ما كنت التفت إليها بتاتا. لكن نحن الكتاب لا نستطيع تجاهل رسالة كهذه، كما لا نستطيع ثور تجاهل تلويح القماش الأحمر أمام عينيه. لم أسمح الرسالة،

بل مررت المؤشر فوق النص حتى تحوّل السهم إلى يد مرفوعة السبابة. حينها وجدت نفسي في موقع «المكتبة الافتراضية».

كان الانتقال سريعاً فلم ألاحظ أي تغير يذكر. ظلت الخلفية سوداء لكن ظهرت إضافتان صغيرتان تحت اسم الموقع وشعاره. أول إضافة هي خانة البحث المعتادة؛ وهي مستطيل أبيض ضيق يكتب فيه الزائر ما يبحث عنه. غير أنك هنا لا تستطيع إدخال عنوان الكتاب أو أي بيانات أخرى، لأن كلمة «الكتاب» هي الكلمة الوحيدة الظاهرة في المستطيل. هزرت رأسي ساخراً... أهذه هي إمكانات المكتبة التي تفاخر بأنها «الأشمل»؟! وفي أسفل الشاشة ظهر عنوان بريد إلكتروني قصير.

كتبت اسمي في الخانة. لم أفعل ذلك لغروري كما قد يبدو. لقد اخترت نفسي لأنني أعلم الناس بكتبي، فإن كانت «المكتبة الافتراضية» تحوي حقاً «كل شيء» كما يدعي شعارها، فلا شك أنني سأجد كتبي الثلاثة فيها. لا أدعي أنني كاتب مشهور لكنني متأكد أن كتبي ستكون موجودة في مكتبة تضم مؤلفات جميع الكتاب. فمكان كهذا لا يمكن أن يكون فيه تفرقة أو محاباة.

لن تخرج نتيجة البحث عن أحد احتمالين. إن لم تخرج النتيجة المتوقعة، وهذا هو الاحتمال الأرجح، فإن الموقع مجرد خدعة حاكها شخص أراد أن يهزأ بالكتاب، بل إنه يهزأ كذلك بالناشرين والنقاد، وأمناء المكتبات وبائعي الكتب، وعالم الثقافة بأكمله. من يدري أي مصيبة ستظهر لي بدلاً من صفحة تعدد أعماله. لكن ليس لي أن أتدمر، فلم يجبرني أحد على زيارة الموقع. وسأكون قد نلت جزائي كاملاً على فضولي إن كان حقاً مقلباً.

لكن إن ظهرت لي كتيبي على هيئة كتب إلكترونية، فالمصيبة أعظم. فأنا لم أمنح لأحدٍ حق نشرها إلكترونياً، مما يعني أنها نسخ مقرصنة عن كتيبي. وهذه مشكلة عصبية. فالإنترنت مليء بهذه النسخ غير القانونية، ولا سبيل للحد أو الحماية منها حسبما سمعت، كما لا سبيل إلى حماية الشخص من تلقي الرسائل الإلكترونية من مصادر مجهولة.

إن كانت كتيبي موجودة فعلاً في «المكتبة الافتراضية» فإن عملية البحث ستستغرق وقتاً طويلاً. يستحيل أن يتم البحث في ملايين المؤلفات في ثوانٍ، مهما كانت سرعة الحاسوب.

لكن هذا ما حدث!

فحالما نقرت فأرة الحاسوب لبدء البحث، ظهرت صفحة جديدة على الشاشة. لكنها هذه المرة كانت صفحة رمادية بأحرف بيضاء وسوداء، وظهرت صورة ملونة صغيرة خالفت النسق العام للصفحة.

ظننت في البداية أن السرعة التي ظهرت فيها الصفحة دليل قاطع على حدوث خلل، لكن عندما وجدت أنني أنظر إلى وجهي يطل من الشاشة... افسح جسدي. هذه صورتي بلا شك، رغم أنني لا أتذكر متى

أو أين التقطت. أبدو فيها أصغر سنًا، وإن لم أتبين كم عمري بالضبط. وفي الجانب الأيسر من الشاشة تحت الصورة أضيفت نبذة عن حياتي. كانت كل المعلومات المذكورة صحيحة، إلا آخر فقرة. أنا ما زلت حيًا!

هل حصل لي شيء دون أن أنتبه؟!

كانت الحقائق المدرجة عن وفاتي غريبة وغير واضحة، فكلمة (مات)

متبوعة بتسعة تواريخ مختلفة، تفصل بينها الفواصل. وكانت الأرقام باللون الأبيض، خلافاً للكلمات التي كانت بالأسود. كان أقرب تاريخ بعد 15 عامًا، أما أبعد تاريخ فكان بعد نصف قرن تقريبًا. يبدو أن محرر الصفحة حس من الفكاهة السوداوية.

وجدت في طرف الشاشة الأيمن قائمة بكتبي، لكنها لم تنته بعد الكتاب الثالث بل استمرت حتى الكتاب رقم واحد وعشرين. هذا هراء! لن أدعي أن بيبليوغرافية ثرية كهذه لا تسرنني، لكنها ليست من مؤلفاتي. ظهر في هذه القائمة كسابقتها لونان؛ أسود للكتب الثلاثة التي نُشرت فعلاً، وأبيض للثمانية عشر كتابًا الأخرى. وكانت تلك الكتب الأخرى مرتبة بحسب تاريخ صدورها. أولها كتاب سينشر العام المقبل، ثم تتوالى الإصدارات على مدى خمسة وأربعين عامًا، حتى تاريخ صدور آخر كتاب. إذا لم يكن مدبر القلب ذا عقل مختل فحسب، بل إنه يظن نفسه متبصرًا بالغيب.

لكن هذا لا يهم. ما يهم هو أن أعرف إن كان هذا من صنع عاطلٍ لم يجد عملاً يشغله إلا اختراع هذا العبث. والإنترنت مليء بأناس لا يعينهم إن بذلوا الجهد والوقت في تدبير مقال كهذه، وأولهم قراصنة الحاسوب. هؤلاء الذين يولّدون فيروسات مدمرة وينشرونها، رغم أنهم لا يجنون أي فائدة سوى المتعة الخبيثة. ضغطت بالسهم على أولى كتبي الثلاثة، واثقًا أن لا شيء سيحدث، لكن السهم تحول للأسف إلى يد مرة أخرى، وامتلأت الشاشة بالنص.

عرفت من الجملة الأولى أن هذا النص هو فعلاً نص روايتي الأولى.

غمرتني موجة من الغضب. كتابي مشاع للعالم بأسره دون إذن ولا مقابل مالي! كيف يجروون؟! سرقة في وضح النهار! يا لهذه الوقاحة! ثم انتعش الأمل في قلبي فجأة. فلربما ليس هذا نص الكتاب كاملاً، بل مجرد مقطع مقتطف منه، وهذا أهون الشّرين. تحركت بالمؤشر حتى وصلت نهاية النص، فتبخر أملي الضئيل. كان الكتاب منشورًا بأكمله، من أول كلمة إلى آخر كلمة. لم أتعب نفسي بفتح الكتابين الآخرين لأنني أعلم يقينًا ما سأجد فيها.

أمسكت الفأرة بسخط أعمى، ونقرت على الزر فعاد بي إلى الصفحة السابقة. وضعت المؤشر فوق العنوان الإلكتروني في أسفل الصفحة ثم نقرت. فتح المتصفح صفحة رسالة إلكترونية فارغة، وعنوان الموقع يحتل خانة «إلى». حدقت في الصفحة البيضاء للحظات وأنا أفكر. حزمت أمري فكتبت «قرصنة» في خانة «العنوان» وشرعت في كتابة الرسالة.

السادة الكرام

وجدت مفاجأة مزعجة جدًا تنتظرنني عند زيارتي لموقع «المكتبة الافتراضية». فقد وجدت أن رواياتي الثلاثة منشورة كاملة ومتاحة للجميع. وحيث إنني بصفتي صاحب حقوق النشر لم أُمح تصريحًا لنشرها في الموقع، فإن هذا يعد من جرائم القرصنة الأدبية التي يعاقب عليها القانون. وعليه، فأنا أمركم بسحب أعمالكم من موقعكم بلا تأخير. كما أود إخطاركم بأن محامي سوف يرسل إليكم قريبًا طلب تعويض عن الأضرار التي تسبب بها نشر

كتبي بطريقة غير مشروعة في موقعكم، والمعلومات الخاطئة المهينة التي أضفتموها إلى سيرتي وقائمة أعمالي.

ختمت الرسالة باسمي دون تحية وداع. أعرف أن هذا ليس من الأدب، لكن لم أستطع التفكير بأي عبارة مناسبة. ومن الصعب أن أختتمها بطريقة رسمية كأن أقول «المخلص» أو «مع التحية». كما أنني لقيت صعوبة في أن أكتب رسالتي بلهجة حادة، فلم يسبق أن كتبت رسالة كهذه. أعتقد أن من الضروري أن تكون الرسالة قاسية ومتوعدة، رغم أنني والحق يقال أشك أنها ستجدي نفعًا. فأقصى ما يرجى منهم هو أن يزيلوا الصفحة التي تحتوي على كتبي. ولا أتوقع أن أتلقى منهم أي تعويض أبدًا. حتى إنني أشك أن أتلقى منهم أي رد. لكنني كنتُ مخطئًا.

وصلني الرد فور إرسال رسالتي. والتفسير الوحيد لذلك هو أن محرري «المكتبة الافتراضية» يتلقون سيلاً من رسائل الشكوى مثل رسالتي، ولذا فقد أعدّوا ردًا جاهزاً يُرسل آلياً في حال تلقي أي شكوى. وهم على الأرجح لا يتلقون إلا الشكاوى. فلنرَ كيف سيدافعون عن أنفسهم؟ سيدي الفاضل

اسمح لنا أولاً أن نعبر عن تقديرنا العميق لشريفنا بزيارة «المكتبة الافتراضية».

واسمح لنا بأن نبدد أي مخاوف أو قلق سببناه لك. فهذه ليست نسخة غير قانونية عن مؤلفاتك. صحيح أن الصفحة المخصصة

لك تضم نصوص كتبك لكن الوصول إليها ليس مجانياً كما ظننت. فليس لأحد سواك الحق في زيارتها، كما أنك لا تستطيع الدخول إلى الصفحة إلا مرة واحدة فقط. وبما أنك قد زرت صفحتك بالفعل، فنحن نؤكد لك تمامًا أن لا أحد يستطيع الدخول إلى الصفحة التي تضم سيرة حياتك، وقائمة مؤلفاتك. ويمكنك التأكد من ذلك بنفسك إن أردت بأن تحاول العودة إلى صفحتك مرة ثانية.

أما فيما يخص المعلومات التي ترى أنها خاطئة، فنود أن نؤكد لك أنها صحيحة ودقيقة.

مع بالغ الاحترام المكتبة الافتراضية

إذا هذه هي خطتهم... يشتكي المؤلف فيزيلون صفحته بسرعة. وبدون الصفحة لا يوجد أي دليل على القرصنة. توقعت منهم تصرفاً أكثر دهاءً. إن الصفحة ما زالت موجودة في ذاكرة جهازي، وهذا دليل لا يمكن تفنيده. كل ما علي هو أن أنقر زر «الخلف» وأحفظها. لا شيء أيسر من ذلك. يبدو أن «المكتبة الافتراضية» تظن أن جهل الكتاب بالحاسوب مستفحل حتى تنظي عليهم خدعة الوصول المحدود إلى صفحاتهم. هراء! كأن أمراً كهذا يمكن تدبيره أصلاً، أو ما قالوه عن دقة معلوماتهم المختلفة. يا لهذه الأكاذيب!

ضغطت بسرعة زر «الخلف» في شريط الأدوات، لكن شيئاً لم أتوقعه

حدث. فبدلاً من أن تظهر الصفحة السابقة، اختفت النافذة التي كانت تحوي رسالة «المكتبة الافتراضية»، وأصبح زر «الخلف» غير فعال كما لو أن ذاكرة الجهاز أضحت خالية!

نظرت إلى الصورة المعتمدة الظاهرة على الشاشة بحيرة ودهشة. لا بد أن الصفحة موجودة. كنت أتصفحها منذ دقائق معدودة، ولم أضغط أي شيء لحذفها. لقد وقع خطأ ما بلا شك. لستُ جاهلاً بالحاسوب، ولكنني أيضاً لست ماهراً بما يكفي لمعرفة أسرار هذه الآلات العجيبة. لا يهم... سوف أدخل اسمي ثانية في خانة البحث، فرغم أنهم أبلغوني أن الوصول إلى صفحتي لن يكون متاحاً، فإن من الصعب أن يجربوا الصفحة بهذه السرعة. لكن للأسف لم يسفر البحث هذه المرة عن أي شيء. قال البرنامج إنه لا يوجد كاتب باسمي في المكتبة التي تضم كل الكتاب الذين عاشوا في الدنيا.

بدأ التشوش والغيب يسيطران على تفكيري. شعرت بأنني الأحمق الذي أوقعه تهوره ضحية حيلة رخيصة، حتى إنني تصورت أن أشخاصاً ضاحكين سيدهمون مكتبي في أي لحظة، ليعلنوا أن كل هذا ما هو إلا حلقة محكمة الإعداد من حلقات الكاميرا الخفية في إحدى المحطات التلفزيونية. لكن لم يظهر أحد. تمهلت لدقائق طويلة، ثم فعلت الشيء الوحيد الذي يمكنني فعله. نقرت مرة ثانية على العنوان الإلكتروني في أسفل الشاشة، وبدأت كتابة رسالة جديدة.

لا أعلم كيف فعلتم ذلك، لكن هذا لا يهم. إن أقل ما يُقال عن دعابتيكم، وإن كنتُ أود أن أستعمل كلمةً أغلظاً، هي إنها عديمة الذوق. إن أمثالكم هم من يسيئون إلى الفكرة النبيلة التي أدت إلى اختراع الإنترنت. عار عليكم! لكن لا تنسوا أن عنوان موقعكم ما زال بحوزتي، وسوف أحاول تتبع أثركم من خلاله. صحيح أن وجود مكتبتي افتراضي، لكن وجودكم حقيقي قطعاً.

وقعت هذه الرسالة باسمي دون أن أكتب تحية في ختامها. انتهى وقت الكياسة والأخلاق الحميدة، بل كان ينبغي ألا أبدأ «بالسادة الكرام» أيضاً. فالمسؤولون عن هذه المهزلة لا يستحقون الاحترام. كنت متأكدًا أنني لن أتلقى ردًا عندما أرسلت هذه الرسالة. فكيف يمكن أن يردوا على اتهامي لهم؟

وصلني الرد فورًا كما حدث أول مرة. كان يجب أن تثير سرعة الإجابة ربيتي طبعًا، فهذه الرسالة ليست كالأخرى، ولا يمكن أن يكونوا قد أعدوا لها ردًا آليًا مسبقًا. ولأن غضبي أعماقي، فلم أتمهل فأفكر باستحالة إعداد رد لرسالة لم يتلقوها من قبل قط، رغم أن هذا ليس أول أمر غريب أواجهه في «المكتبة الافتراضية». ما أسرع أن يتقبل الإنسان الأشياء التي لا يجد لها تفسيرًا، خاصةً إن كان الأمر له علاقة بالحاسوب!

سيدي الفاضل

نأسف إن كان الانطباع الذي وقع في نفسك عن موقعنا سيئًا. إن

السخرية وتدير المقالب هو أبعد ما يكون عن أذهاننا. إن جميع جهودنا مكرّسة إلى تنفيذ عملنا بجدية ومسؤولية، وهذا هو كل ما نطمح إليه.

مع بالغ الاحترام
المكتبة الافتراضية

كنت أهم بفتح نافذة جديدة لرسالة ثالثة إلى عدوي المجهول عندما نطق صوت العقل في داخلي. بدأ يقنعني بالعدول عن ذلك، فماذا سأكسب من المشاركة في هذه السخافة؟ لقد فعلت كل ما بيدي فعلة في هذه الظروف. وقد أزالوا الصفحة التي تضم مؤلفاتي، وهكذا فإن أي مراسلات أخرى لن تفضي إلى أي نتيجة. لكن الإنسان للأسف لا يصغي دائماً إلى صوت العقل.

أعتقد أنكم تظنون أنني سأصدق قائمة الكتب التي تدّعون أنها كتبي، رغم أنها لم تُكتب بعد. ربما كنتُ سأعجب بقدراتكم على تبصر الغيب، لولا ترددكم الواضح في اختيار عامٍ لوفاتي. تسعة احتمالات! لعلكم تبلغوني متى ما قررتم أيها هو التاريخ الحقيقي. فمعرفة هذه الأمور على وجه الدقة سوف تسهّل بقية حياتي، مهما طالت أو قصرت.

وهذه المرة لم أختتم رسالتي حتى بتوقيعي، طامحاً في أن يشير هذا ونبرة السخرية الواضحة في الرسالة إلى رأيي فيهم، إن كان يخامرهم أي شك في مدى احتقاري لهم. فأدبهم الجَمّ الذي لا ينسجم أبداً مع أفعالهم قد

بدأ يثير أعصابي. وصلني الرد كالعادة فور إرسال رسالتي، لكن لم يعد هذا يثير عجبني. فحركات خفة اليد تفقد روعتها كلما تكررت، حتى إن لم تكن تعلم كيف أداها الساحر.

سيدي الفاضل

لا نستطيع وبكل أسف أن نبلغك بموعد وفاتك. فليس من السهل التنبؤ بالمستقبل. كل الاحتمالات التسعة واردة بنسب متساوية في هذه اللحظة، وسوف يحدد القدر أيها يختار. أما البيبليوغرافية التي قرأتها فتضم جميع مؤلفاتك من جميع مسارات مستقبلك. لكنك لن تؤلف وتنشر تلك الأعمال الثمانية عشرة جميعها في فرع واحد من أفرع حياتك الممتدة، إن شئنا حسن التعبير. فأعمالك القادمة ستكون إما أحد عشر كتابًا كحد أقصى، أو ستة كتب كحد أدنى. ولكنك لم ترها كلها في مكان واحد إلا في موقعنا. وما نامله هو أن نكون قد صدقنا الوعد الذي قطعناه في شعارنا.

مع بالغ الاحترام

المكتبة الافتراضية

اختفت الرسالة فجأة بمجرد فراغي من قراءتها، وأغلقت النافذة التي كانت تضمها رغم أنني لم ألمس أي زر. وبعد ثوانٍ حدث الشيء نفسه لنافذة المتصفح. ظلت نافذة واحدة فقط مفتوحة وهي نافذة بريدي الإلكتروني، لكنها لا تحتوي على الرسالة الأصلية التي تلقيتها من

«المكتبة الافتراضية»، رغم أن المفروض أن تكون موجودة فيها لأنني لم أمسحها. تأكدت قبل أن أغلقها ما إذا كانت هناك رسائل جديدة قد وصلت لكنني لم أجد شيئاً.

جلست بلا حراك لفترة طويلة ذاهل البصر أحقق في الشاشة الفارغة. لم أحاول أن أفهم ما جرى، فأعاجيب الحاسوب تستعصي على فهمي. ظللت أنقب في طيات ذاكرتي محاولاً بجهد تذكر ما كُتب بالأبيض على خلفية رمادية على يمين صورتي، لكنني لم أستطع. وكأن على النص غشاوة زئبقية لا يمكن اختراقها. استسلمت في النهاية وأوقفت -يهودي الخاوية. أغلقت الحاسوب، والحنق يجثم ثقيلًا على قلبي.

منذ ذلك الحين وأنا أمحو الرسائل غير المرغوب فيها.. لكن ليس مباشرة. فأنا أقرأها أولاً، حتى وإن كان واضحًا من الوهلة الأولى أنها لا تستحق أي اهتمام. أشعر بالسخف وأنا أتصفح عروضاً إعلانية غير مفهومة، رغم أنني أعلم يقيناً أنني لن أرَ من بينها رسالة مقتضبة ذات خلفية سوداء. لكن هذا هو جزائي والحمل الذي سيثقل كاهلي دون رجاء في التخفيف منه.

المكتبة المنزلية

فتحت صندوق بريدي.

كل ما أجده عادةً في الصندوق هو بعض الفواتير في بداية الشهر، ومع هذا فأنا أتفقدّه يوميًا بعد عودتي من العمل. وأفتحه كذلك في يومي السبت والأحد في الوقت ذاته كبقية أيام الأسبوع، رغم أن ساعي البريد لا يأت بالرسائل في هذين اليومين. مجرد حرص. وكل ثلاثاء، أخذت معي منديلاً لمسح الغبار الذي يتجمع داخل الصندوق، حتى إن لم يكن بالإمكان رؤيته من الخارج. يجب أن نولي عنايتنا لهذه الأماكن أكثر من اهتمامنا بالمناطق الظاهرة للعين، والناس يميلون غالباً إلى إهمالها، رغم أنها أفضل شهادة على الدقة الشديدة.

ما كان يجب أن أجد شيئاً في صندوق بريدي، لأن الشهر ما زال في منتصفه. لكن عندما فتحت باب الصندوق الخشبي رأيت كتاباً كبيراً إذا لون أصفر قاتم استحوذ على مساحة الصندوق كلها. ولو أن شخصاً آخر وقع له هذا الأمر لكثرت تساؤلاته عن هذا الظهور المفاجئ. أولاً من أرسله إليّ؟ لم يرسل أحد إليّ كتاباً قط. ولماذا يرسل لي أحدهم كتاباً؟ كما أنه لم يكن مغلفاً، ولا يحمل أي بطاقة تشير إلى أنه مرسل إليّ. إذا لماذا وضعه الساعي في صندوق بريدي؟ والسؤال الأخير: كيف استطاع

أن يدخل الكتاب السميك في فتحة الصندوق الضيقة التي يدخل منها الفواتير؟ يستحيل أن يكون قد أدخلها عبر الفتحة. لكنني لم أندعش. ولم تشغل أي من هذه الأسئلة المقلقة تفكيرني. فلقد تعلمت منذ زمن بعيد أن العالم يحفل بالأعاجيب التي لا نجد لها تفسيرًا، ولا جدوى من محاولة حل ألغازها. وماذا سيجني من يحاول سوى البؤس؟ من يا ترى يريد أن يكون تعيسًا بلا داع؟ يجب أن يتقبل الإنسان الظواهر غير العادية كما هي، دون تسويغ أو تفسير، فهذه هي أيسر طريقة للتعايش معها.

لم أتوصل إلى هذه الحقيقة إلا بعد أن أحالت ظواهر غامضة كثيرة حياتي إلى كتلة من التعاسة. فلنأخذ مثالاً واحدًا، وهو عدد درجات السلم بين الطابق الأرضي وشقتي في الطابق الثاني. من عاداتي أن أعد الدرجات بصوت عالٍ نسبيًا في كل مكان، وفي جميع الظروف، حتى وإن كنت أعلم عدد الدرجات من قبل. فعندما أصعد الدرج يكون عددها 44 درجة دائمًا، وعندما أهبط إلى الطابق الأرضي تصبح 41 درجة فقط. وكنت في بداية سكني هنا أتضايق بسبب هذا الفرق، ولم أترك وسيلة إلا جربتها لمحاولة فهم السر.

حاولت أولاً أن أفوق درجات السلم دهاءً. صرتُ أعدّها صامتًا محكمًا إغلاق فمي، كيلا يُعرف ما أفعله. لكن لم تفلح الخطة، فالدرجات عند الصعود أكثر من درجات النزول بثلاث درجات، وكأن في الأمر تحديًا.

ثم جربت عدها وأنا أسير إلى الخلف. ورغم أنني كنت أسير بحرص، فإن ذلك كان صعبًا وخطيرًا. ولسبب ما لا أعرفه، فإن نظرات جيراني المحتررة المرتابة كانت موجهة إليّ. كنتُ أحييهم بأدب، وأرفع قبعتي، وأوماً برأسي، لكنهم كانوا يهتمون بالرد منكسي رؤوسهم. أحياناً تكون تصرفات الناس غريبة جداً.

وأخيراً خطرت في ذهني فكرة عد الدرجات في الظلام. فصرت أغادر شقتي بعد أن ينتصف الليل، مرتدياً خفين من مطاط، كيلا توظ خطواتي أحداً. وأنزل إلى الطابق الأرضي دون أن أضيء مصباح الدرج، ثم أعود إلى شقتي. نزلت وصعدت، صعدت ثم نزلت حتى طلوع الفجر. لم يكن الأمر صعباً رغم الظلمة الحالكة، لأنني كنتُ أعرف عدد الدرجات بالضبط نزولاً وصعوداً. لكن استعمال الدرج قد يكون خطيراً حتى لو كنت ترى طريقك بوضوح، فما بالك وأنت تتحرك تحت أسدال الليل. ولو أنني آمنت بما يمليه المنطق، وهو أن عدد الدرجات لا بد أن تكون متساوية في الصعود والهبوط، فستغدو حياتي صعبة.

عندها أسقط في يدي واستسلمت. لم أعد أحاول أن أبحث عن تفسير لكل شيء مهما كان الثمن. فإن كان المنطق صاحبك لا يعني أن تعتمد عليه دائماً. أحياناً قد يكون من الأفضل والأجدي أن تتقبل الأعجوبة، فربما يكون في تقبلك إنقاذاً لروحك، وهذا أمر لا يُستهان به. نجوت من الدرج في الظلام، واستعدت طمأنينة بالي. وبعد أن بدأت أروض

فضولي الزائد تحسن نومي، عادت إلي شهيتي وقلت كآبتي، كما زال
تبلدي وهزالي. عجبًا! كيف يصنع قرار واحد بسيط منك رجلاً جديداً!
بدلاً من إضاعة الوقت في التعجب، سحبت الكتاب من صندوق
بريدي وتفحصته. كان عنوانه مكتوباً بأحرف سوداء كبيرة مزخرفة؛
«أدب العالم». لا شيء على الغلاف سوى العنوان، ولا حتى اسم
المؤلف. وهذا أيضاً لم يدهشني. فكيف يمكن لعمل كهذا أن يكون
له مؤلف؟ تصفحت الكتاب بسرعة، فاكتشفت أن صفحاته أكثر مما
يوشي حجمه لأنها كانت رقيقة جداً بسمك قشرة البصل. كان ذلك
أنسب ما يكون للعنوان، فلو أنه محدود في محتواه لما صدق عنوانه. كانت
الطبعة رائعة من جميع النواحي، حتى إن شريطاً بنياً ربيعاً قد ألصق
بكعبها ليحدد مكان القراءة.

تأبطت «أدب العالم» وصعدت إلى شقتي. بلغت الدرجة العشرين
ثم توقفت. اليوم هو الثلاثاء! نسيت ما اليوم بسبب ظهور الكتاب
الغامض في صندوقي. لم أجد بداً من النزول ثانية. لا ينبغي أن يمنع
المرء شيئاً عن أداء واجباته، حتى وإن كان هذا المانع حدثاً غامضاً لم
يتوقع حصوله. هبطت الدرجات وأنا أخرج من جيب سترتي منديلاً
من الحرير الأخضر مخصصاً لتنظيف صندوق البريد.

كانت مفاجأة ثانية تنتظرنني عندما فتحت الصندوق. كتاب ثانٍ أصفر
اللون ثقيل الغلاف، يحمل العنوان نفسه. لو أن هذا حدث لشخص لم

يألف الأعاجيب لاستبد به الذهول، ولترجع عن الكتاب خائفًا بقلبٍ مرتعش وجلد مقشعر. وبعد أن يستجمع شتات عقله، يبدأ بالبحث المحموم عن تفسير، لكنه سيعجز عن إيجاد منطق يقنعه. لا أدري ماذا سيفعل بعد ذلك. ربما سيحاول الانتحار.

لكني كنت بالغ الهدوء وغير منزعج على الإطلاق. كل ما فعلته هو أنني أخرجت المجلد الثاني من «أدب العالم»، فتأبطته مع المجلد الآخر. مسحت صندوق البريد. ومن حسن حظي أنني لم أكن أحتاج سوى يد واحدة لمسحه. ركزت كما هي عادتي على الزوايا السفلية من الصندوق، وهي دائمًا أصعب الأماكن في التنظيف وأكثرها التقاطًا للغبار، حتى ليظن المرء أنها تعانده.

أقفلت باب صندوق البريد، وصعدت إلى الطابق الثاني. هذه المرة لم أبتعد كثيرًا، فلم أكد أرفع قدمي فوق الدرجة الأولى حتى هبطت عليّ فكرة أعادتني إلى الصندوق. فتحتة فغشيني الفرح وغمرني. كل إنسان يسعد إن صدق حدسه، خاصةً إن كان حدسًا يتنبأ بالخير. لو أن أحد جيراني مرّ بي في تلك اللحظة، لرأى السعادة تشع من وجهي، ذلك أنني رأيت كتابًا ثالثًا أصفر اللون في الصندوق.

لا أعرف كيف أفسر معرفتي بوجود الكتاب في الصندوق، قد يكون هو حقًا الحدس، لكن أشك أنه الحدس فقط. ففكرة كهذه لم تكن لتخطر في عقل شخص يتهيب الأعاجيب. وهذه ميزة أخرى في عدم الاستسلام

لأحكام المنطق. أخذت الكتاب الجديد، لكنني لم أستطع تأبط ثلاثة مجلدات ثقيلة، فحملتها على ذراعي اليسرى. أفضلت الصندوق بعد ذلك. انتظرت أمامه ولم أتحرك. وقفت لبضع دقائق أحاول أن أتظاهر بالصبر، ثم فتحت صندوق البريد للمرة الرابعة. ورغم فرحي بظهور الكتاب الرابع فإن حماسي السابق خف قليلاً. فليس من الذوق الافتخار بالنفس، أو المجاهرة بالانتصار.

اضطرت إلى التوقف بعد الكتاب الثالث عشر بسبب وزن الكتب. فقد نسيت في غمرة حماستي أن الكتب ليست خفيفة كما يظن الناس، خاصة إن كانت مكومة معاً. يجب أن أنقلها إلى الطابق الثاني. وكان من الأيسر لو أنني أنزلتها من الأعلى بدلاً من أن أصعد بها، لأسباب عديدة منها أن الدرجات أقل عددًا بالنزول منها عند الصعود. وطريقة حمل الكتب نفسها كانت متعبة جداً. فقد انحنيت ماداً ذراعي حتى وصلنا إلى ركبتي، لأحمل الكتب المصفوفة واحداً فوق الآخر، وذقني يضغط على أعلاها ليحفظ توازنها، ما يعني أن رأسي مشدود إلى الأعلى. نظرت حولي بتوتر. لا أريد أن يراني أحد من جيراني وأنا أحمل نسخاً كثيرة من الكتاب نفسه. ماذا سيظنون بي؟ والناس بطبعهم يميلون إلى التسرع في إصدار أحكامهم.

وصلت إلى شقتي أخيراً متقطع الأنفاس. واجهتني صعوبة في فتح الأقفال الثلاثة، وعمود الكتب مستند إلى ذراع واحدة فقط. وأصعب

الأقفال فتحًا كان القفل السفلي القريب من عتبة الباب، فقد اضطرت إلى التفرص محافظًا على توازني بمشقة. ولو أن الكتب كانت غير هذه التي أحملها، لوضعتها على الأرض. ولم أكن قلقًا من تعرضها للاتساخ، لأنني أنظف مدخل شقتي بدقة متناهية، لكنني أحسست أن وضع مجلدات «أدب العالم» على البلاط البارد إهانة لها، بل تكاد تكون انتهاكًا لحرمتها. عندما دخلت الشقة واجهتني مشكلة أخرى. أين أضع الكتب؟ ترددت ووقفت بجوار الباب لحظات، لا أعرف ماذا أفعل بها. وضعتها في النهاية على الطاولة إلى أن أتدبر الأمر. إن أفضل حل هو وضعها على رف الكتب، فهذا هو المكان الطبيعي لها. لكن للأسف ليس لدي رف كتب. وما حاجتي له وأنا لا أملك أي كتاب؟

لم أنشئ مكتبة في شقتي منذ أن انتقلت إليها. وهي شقة صغيرة، فيها غرفة واحدة وردة ومطبخ وحمام، وجميعها ضيقة متناهية الصغر، حتى إنك لا تستطيع الالتفات دون أن تحبط ذراعيك بالجدران. ومن المعروف أن الكتب تبتلع المساحات ابتلاعًا. وهذا قانون لا يمكن تبديله، فمهما أعطيت للكتب من مساحة فإنها لا تكتفي أبدًا. تحتل في البداية الجدران، ثم تنتشر لتشغل كل حيز يمكن أن يحتويها، حتى لا يبقى سوى السقف الناجي الوحيد من هذا الغزو. ثم تتوالد الكتب الجديدة، ولا تحتمل عندئذ فكرة التخلص من أي كتاب لديك أبدًا. وهكذا تزيح الكتب عن طريقها كل شيء غيرها ببطء وخفية، كأنها نهر منساب.

ليس لدي خيار آخر. وصلت الكتب إلى داخل شقتي، ويجب أن أضعها في مكان ما. لا يمكن أن أتركها في صندوق بريدي، فأنا رجل ناضج ومسؤول. لا يمكن أن أدرس رأسي في الرمال، وأتظاهر بأنها غير موجودة. بل إن في تجاهلي لها ما قد يثير شكوك ساعي البريد، عندما يحاول أن يدس فواتيري في الصندوق ولا يستطيع لأنه ممتلئ. سوف يتساءل ما منعني من أخذ بريدي؟ وقد يصعد إلى شقتي ويسألني. ماذا أجبه؟ لا تجاهل الكتب حل غير وارد على الإطلاق. لم يكن أمامي سوى إحضارها إلى الشقة، وسوف أفكر فيما بعد بما أفعله بها.

إن السؤال الآن هو كيف أحمل بقية الكتب، على افتراض أن ثمة المزيد منها. لا يمكنني أن أفعل ما فعلته في المرة الأولى، لم تكن تلك الطريقة مناسبة. يجب أن أجد شيئاً أحمل به الكتب. نظرت حولي في أنحاء الغرفة، فتذكرت شيئاً يناسب حاجتي، رغم أن عيني لم ترياه. أخرجت من خزانتي حقيبة سفر كبيرة ذات دعائم نحاسية في زواياها. كانت تكفي الكثير من الكتب، وهذا هو المطلوب، لكنها ستكون ثقيلة جداً إن امتلأت. أحياناً يطعمك القدر باليمنی ويخنقك باليسرى.

لم يكن سهلاً أبداً الصعود بستة وخمسين مجلداً من «أدب العالم» إلى الطابق الثاني مرة واحدة. اضطررت إلى حمل ذراع الحقيبة بيدي الالنتين. وعندما وصلت الدرجة الثامنة والعشرين، أدركت أنه ما كان يجب أن أثقل نفسي بهذا الحمل العظيم. ولكن لو أنني قللت عدد

الكتب، لآزداد عدد مرات صعودي ونزولي، مما يعني أنني لم أستفد شيئاً. لو أن في المبني مصعداً لما عانيت كثيراً. لذا لم أجد أمامي سوى هذا الحل لآلب الكتب إلى شقتي.

أخرجت الكتب من الحقيبة، وبدأت بوضعها بجانب النسخ الثلاثة عشرة السابقة، فرأيت مشكلة جديدة تطل برأسها. لن تحتمل أرجل الطاولة الصغيرة وزن حمل ثالث من الكتب. وماذا أصنع حينها؟ يجب أن أضع خطة قبل أن أكمل مهمتي. لا يمكن أن أتابع العمل متخطباً. ولا أدري كم من الكتب ستظهر في صندوق بريدي، قد تكون بضع مجلدات، وقد تكون المئات. وأنا أرجح الخيار الثاني. فهذا أدب العالم، ولا شك أن المجلدات لا حصر لها حتى لو طبعت على قشر البصل. يجب أن أحضر نفسي لأسوأ الاحتمالات.

كان أاث حجرتي اليتيمة قليلاً، وهذا من حظي وحسن طالعي. لدي طاولة، وخزانة ملابس، وأربعة كراسي، وسريـر، ومنضدة، وطاولة صغيرة بجانب سريـري. دفعتها كلها إلى إحدى الزوايا، فأفرغت ثلثي الحجرة تقريباً، فكان لذلك أثر معاكس، حيث أصبحت الجهة اليمنى من الباب ضيقة وعاجة بالأثاث. لكنني لم أتضايق، فالظروف الاستثنائية توجب على المرء أن يقدم توضيحات لا يعكرها الشكوى. وأنا بطبيعتي لا أعبأ كثيراً بالراحة.

فرشت الأرض في الناحية الخالية من الغرفة بأوراق الجرائد. كانت

الأرض نظيفة طبعًا، لكنني شعرت أن في فرشها احترامًا أكبر. ثم شرعت أنقل الكتب، وكان ذلك يتطلب شيئًا من التخطيط. فبدأت أرتبها في أبعاد الزوايا عن الباب، وهو المكان الذي كنت سأبدأ منه لو أنني كنت أريد تلميع الأرض مثلاً. ارتفع عمود مكون من أربعين مجلدًا بالضبط من الأرض إلى السقف. استخدمت كرسيًا لأقف عليه كي أضع الكتب السبعة الأخيرة. كان العمود الأصفر الطويل سيتداعى في الغالب، لولا أنه مستند إلى جدارين، ومثبت من الأعلى بالكتاب الأخير الذي حشرته بقوة. نزلت عن الكرسي، وتراجعت إلى الوراء أتأمل المنظر بإعجاب.

بعد أن حددت إستراتيجيتي، جاء وقت العمل. لا وقت للتردد. من يدري كم سيستمر الأمر؟ أمسكت الحقيبة الخالية، ونزلت إلى الطابق السفلي. لقد بسّطت العملية ليتسنى لي العمل بأسرع وقت ممكن. كنتُ أخرج المجلد الواحد من صندوق البريد، فأغلق بابه للحظة قصيرة ثم أفتحه، لم يكن هناك حاجة لإقفاله. فالمجلد الجديد ينتظرنى بداخله. أصبحت ماهرًا في ترتيب الكتب في الحقيبة، حتى وسعت ثمانية وخمسين مجلدًا.

مرّ جيرانى عدة مرات، لكن لم يلتفت أيُّ منهم إليّ. كل ما فعلوه هو أنهم أشاحوا أبصارهم عني وسارعوا في خطاهم. لا أفهم البشر أحيانًا. لا أريد أن أقول إن عدم اهتمامهم هذا لم يناسبني، فأنا لا أود أن أسوّغ لهم تصرفاتي، بل ولست مجبرًا على أن أجيب عن تساؤلاتهم. لكن مع ذلك

فإن لا مبالاتهم لا تُغتفر. ماذا لو أن شخصاً ذاتية خبيثة أو عقل مختل كان في مكاني؟ ونحن نرى في هذه الأيام أشكالاً عدة من المعتوهين يتسكعون في المجمعات السكنية المحترمة.

بدأ التعب ينشب بي أظفاره مع مرور الوقت. لم أستطع بعد الحقيبة السابعة والعشرين أن أصل إلى الطابق الثاني دون أن آخذ استراحة قصيرة. وكان من المنطقي أن آخذ استراحة في المنتصف بعد الدرجة الثانية والعشرين، خاصةً أنها تقع في الطابق الأول. لكن الهلاك لحقني بعد الحقيبة التاسعة والأربعين، فقررت حينئذ أن آخذ استراحة ثانية. لا يمكن تقسيم أربع وأربعين درجة على ثلاثة أجزاء بالتساوي. فلجأت إلى حلٍ مزعج. صرت في البداية أتوقف برهة بعد الدرجة الخامسة عشرة، وأتوقف مرة ثانية بعد الدرجة الثلاثين، وهكذا لا يتبقى إلا أربع عشرة درجة في الثلث الأخير من طريقي. وكان عدم التساوي في التوزيع يزعجني، إلى أن حملت الحقيبة الثالثة والستين حيث احتجت بعدها إلى استراحة رابعة. والحمد لله أن أربعة وأربعين تقبل القسمة على أربعة. فصرت آخذ استراحة بعد كل إحدى عشرة درجة، أي في كل بسطة من بسطات الدرج، وفي الطابق الأول.

صعدت بالحقيبة الثانية والتسعين، فملأت محتوياتها المكان الذي أفرغته للكتب. جدار ضخّم أصفر قاتم اللون انتصب أمامي. هذا هو «أدب العالم» بكل عظمة وبهاء. كان الليل قد هبط منذ وقت طويل، لكنني مع

هذا اندهشت عندما نظرت إلى الساعة فوجدتها تشير إلى 2:17 صباحًا. استطعت أن أعمل في جوف الليل دون أن أزعج جيراني لأنني لم أضيء مصباح الدرج، وبذلت أقصى جهدي لأحافظ على هدوئي، حتى إنني خلعت حذائي. وكان مدخل الحمام، حيث أحتفظ بحذائي الخفيف، مغلقًا بأكوام الكتب، فبقيت مرتديًا جواربي دون أن أخشى إصابتي بالزكام لأن الجو كان دافئًا. ربما كان من الأفضل لو أنني غيرت ملابسني وارتديت ملابس مناسبة لهذه المهمة، لكنني نسيت في غمرة استعجابي. وقد تجعدت البدلة التي ارتديتها إلى العمل في ذلك الصباح من الحمل والنقل، وتبلل قميصها بالعرق، وتراخت ربطة عنقي. لكنني على الأقل لم أكن أرندي قبعتي.

لم أر نهاية لعذابي. مهما أفرغت صندوق البريد، أجده ممتلئًا عندما أفتحه مرة ثانية. لم أجد خيارًا آخر إلا أن أبحث عن مساحة إضافية للكتب الجديدة. تمهلتي وسألت نفسي: أي قطعة من قطع أثاثي يمكنني الاستغناء عنها؟ وقررت أن الإجابة هي السرير، لأنني قطعًا لن أحتاجه تلك الليلة، وأنا الذي صعب علي اقتطاع استراحة قصيرة من وقت العمل. كان السرير ثقيلًا رغم صغره، وكنت أعزّي نفسي بأنه سيكون أثقل بكثير لو أنني كنت أحمله في الاتجاه المعاكس. أخذت السرير إلى المساحة المخصصة لي في مخزن القبو، وكانت رغم ضيقها خالية، لأنني لم أملك شيئًا أحفظه فيها. أوقفت السرير عموديًا متوقعًا

أنني سأضطر عاجلاً أم آجلاً إلى وضع شيء آخر بجانبه.

بعد الساعة الخامسة صباحاً، وبعد الحقيبة رقم (119)، تجسدت مخاوفي أمامي. فالفراغ الذي خلفه إزالة السرير قد امتلأ حتى السقف بمجلدات صفراء. أخذتني الحيرة المؤلمة بالتفكير بما سأنزله هذه المرة إلى القبو، ثم أدركت أن هذا لا يهم في شيء. لماذا أخدع نفسي؟ كل قطعة من قطع الأثاث ستنتقل إلى القبو، فمن المنطقي إذاً أن أنقلها كلها مرة واحدة. وأنسب الأوقات هو الآن والناس نيام. أستطيع أن أحملها دون أن يلاحظني أحد، وبذلك أتجنب نظرات جيراني المتطفلة.

لم أجد مشقةً في نقل الطاولة والكراسي والمنضدة وطاولة السرير، لكن خزانة الملابس كانت أكبر تحدٍ، لا بسبب ثقلها فحسب، بل أيضاً بسبب حجمها. ترنحتُ وتمايلت تحت وطأة جرمها الضخم، أحاول الاحتفاظ بتوازي، وكدت أقع مرتين. كنت أحملها فوق ظهري معظم الوقت، متجنباً إصدار أي ضوضاء، رغم الصرير الذي أفلت منها ولم أستطع كتمه. لعل الحظ كان في جانبي ولم أوقظ أحداً، فلم يخرج أحد من شقته ليرى ما يحدث.

عندما وصلت إلى القبو أحسست أن كل جهدي ذهب أدراج الرياح. فإدخال الخزانة عبر الباب الضيق تطلّب براعةً في المناورة والتحرك. ومع كل قطع الأثاث المحشورة في المخزن الصغير لا أعتقد أنني سأستطيع زحزحة أي منها دون هدم الجدار الفاصل.

امتألت كل المساحات الفارغة المتبقية في الغرفة مع اقتراب طلوع الفجر. وقبل أن أسدّ مدخل الحمام بالكتب، قضيت لحظات في الداخل، فإما أن أدخل الآن وإلا فلن أدخل أبدًا. خرجت من الحمام أكثر نشاطًا وانتعاشًا، رغم أني لم أستطع محو آثار تعب الليلة كلها. لكنني كنت أرجو أن مذهري لن يسبب صدمة في أنفس جيراني عندما أقابلهم على درجات السلم. ارتديت حذائي وقبعتي كي أحسن مذهري قليلًا.

وعندما حان وقت تغطية مدخل المطبخ بالكتب، فكرت بإخراج الثلاجة والفرن الصغير منه، وربما الأطباق وأدوات المائدة أيضًا. لكن سرعان ما تخلّيت عن هذه الفكرة. فلم أكن أعرف ماذا أفعل بهذه الأجهزة الثقيلة، ولم يعد في مخزن القبو مكانًا لها. ولا يمكن كذلك أن أتركها أمام مدخل الشقة. لا فلتبقّ مكانها في المطبخ. لن تعينني حتى وإن لم أستطع الوصول إليها.

في الساعة 8:26 صباحًا، وبعد (143) حملًا من أحمال الحقيبة، امتألت الغرفة حتى لم يبقَ منها شبرًا خاليًا. ثمانية آلاف وثلاثمائة وخمسة كتب! كان منظرها مهيبًا. حشرتُ الكتاب الأخير مكانه، ووقفت في صمت جليل مقلبًا عيني فيها بإعجاب. هل رأى أحد من قبل في أي مكان، وفي أي زمان، أدب العالم بأكمله مجتمعًا في مكان ضيق كهذا؟ شعرت بأنفاسي تتسارع. كانت النتيجة في النهاية تستحق كل ذلك الجهد الجهد. لكن لم يكن عندي وقت لتأمل المنظر. يجب أن أذهب إلى عملي. ففي

كل السنوات التي قضيتها في وظيفتي لم أتأخر قط . عندما أعود عصرًا إلى منزلي سأمتع ناظري بمرأى الكتب حتى أرتوي . سوف أجلس في الردهة أمام باب الغرفة المفتوح، وأحدق في هذا الكنز الأصفر وماذا يحتاج المرء غير هذا؟ كرسي، ربما؟

لا لا أحتاج إلى كرسي . إن احتياجاتي متواضعة منذ عرفت نفسي . ولقد تدبرت أمري دون الحاجة إلى الأشياء الأخرى، وسوف أتدبر أمري بدون كرسي . لن أجلس على الأرض الجرداء على أية حال، فعندي سجادة من الصوف الخالص .

نزلت إلى الطابق الأرضي، فتحت باب صندوق البريد . كان اليوم أربعاء، ومع ذلك أخرجت المنديل الأخضر ومسحت جوف الصندوق . لم أكن دقيقًا في التنظيف كعادتي نظرًا لاستعجالي . صحيح أن الكتب نظيفة وخاصة إن كانت جديدة، لكن مئات المجلدات مرّت عبر هذا الصندوق . أنا متأكد أنها تركت وراءها شيئًا من الغبار .

المكتبة الليلية

ليتني لم أذهب إلى السينما أولاً لو كنت أعلم أن الفيلم سيستغرق ساعتين، لقد صدت المكتبة قبل السينما. قد يكون منظرني غريباً، وأنا أحتضن كتباً في مقعدي أثناء مشاهدة الفيلم، لكن أشك أن أحداً سيلاحظ. ما أن حلت السابعة والنصف، إلا وبدأت أتملأ في جلستي، وأقرب معصمي الأيسر نحو شاشة العرض لأرى ساعتني. كانت قصة الفيلم أطول مما ينبغي في رأيي، رغم أن حبكة مشوقة. راودتني نفسي بالمغادرة قبل نهايته، لولا أنني كنت أجلس في منتصف الصف، وقيامني من مقعدي سيضايق من حولي.

عندما انتهى الفيلم أخيراً عند الثامنة إلا عشرًا سارعت بالخروج من السينما. رأيت نظرات مرتادي السينما المؤتبة مصوبة نحوي، وتناهدت إلى أذني همهمات الموبخة، وأنا أشق معذراً طريقي بين الحشد الأقرب إلى المخرج. قد ألحق بالمكتبة إن أسرعت، فهي ليست بعيدة عن صالة السينما. صحيح أنها تغلق أبوابها عند الثامنة، لكنني من مرتادها الدائمين، وقد يستقبلني طاقمها بشيء من التحمل وسعة الصدر.

لم يكن ليغني لي ذهابي إلى المكتبة من عدمه طبعاً لولا أن اليوم جمعة، والمكتبة مغلقة في يومي السبت والأحد. أي أنني إن لم أذهب اليوم فلن

أجد ما أقرأه خلال نهاية الأسبوع. وهذا احتمال لا أطيق التفكير فيه. فأنا أعيش وحيداً، وأملك وقت فراغ طويل يجب أن أشغله بطريقة أو بأخرى. وقد اكتشفتُ منذ زمن أن القراءة أكثر نفعاً ومتعةً من تجميد عقلي وحواسي أمام التلفاز.

أفزعني فكرة قضاء اليومين القادمين أمام التلفاز، متقلّباً بين الحق والسأم وتأنيب الذات، حتى دفعتني إلى الجري. ولم يكن الجري سهلاً لأن السماء قد بدأت تتلجج عندما كنت في السينما. كانت الرياح ترشق قطع الثلج الكبيرة التخينة على وجهي، وأنا أحث خطاي إلى الأمام. فاضطرت إلى فتح مظلتي أمامي لأدراً عن وجهي هجمات الثلج. وتباطأت خطواتي لأنني لم أكن أرى موطأ قدمي، ومن حسن طالعي أنني أعرف الطريق، وأن الأرصفة في ذاك الطقس كانت شبه خالية من الناس.

وصلت إلى المكتبة العامة بعد الثامنة بثلاث دقائق. عرفت الوقت لأنني نظرت عبر زجاج مدخلها، فرأيت الساعة الكبيرة المتدلية من سقف البهو. كانت الأنوار ما زالت مضاءة، لكن إن كان الباب موصداً فلن تفيد علاقتي الطيبة بأمناء المكتبة في فتحه. أمسكت مقبض الباب البارد في خوف ودفعتة. زفرت بارتياح عندما انفتح الباب. دخلت بسرعة، واستدرت لأنفص عن مظلتي ندف الثلج، ثم أغلقت الباب خلفي.

أمضيت بضع دقائق في البهو أنفص قطع الثلج عن شعري، وأضرب ممسحة الأرجل بقدمي لأزيح عنهما ما علق منه. أخرجت منديلاً

لأمسح قطرات الماء عن نظارتي. وضعت مظلتي في حامل المظلات النحاسي بجانب الباب، ثم صعدت مسرعاً الدرج الضيق المؤدي إلى قاعة المكتبة الرئيسية.

كانت المكتبة دافئة، فجمع الندى على نظارتي الباردة وأنا أصعد الدرج. وعندما دخلت إلى الصالة ذات الأضواء الساطعة اضطررت إلى خلعها ومسحها مرة أخرى. ورغم أن قصر نظري شديد، فإنني استطعت السير وأنا أمسح نظارتي، لأن الردهات العريضة المفروشة بالسجاد الأحمر القاتم كانت تخلو من الأثاث. فالطاولات والكراسي على يساري بجانب النوافذ العالية. تقدمت بخطوات واسعة تجاه منضدة أمين المكتبة، في الطرف المقابل من الحجر، وأنا أحمل نظارتي والمنديل بيدي. وفي الجهة اليمنى ارتفعت أرفف مليئة بالمراجع المتنوعة والمصنفات التي بدت لي بسبب رؤيتي المشوشة ككتل داكنة بارزة من الجدران.

وضعت نظارتي على عيني في اللحظة التي وصلت فيها إلى مكان أمين المكتبة. كنت قد هيات في عقلي عذراً لطيفاً أسوّغ به تأخري. عذر تصحبه ابتسامة مناسبة تلطف مزاج أمين المكتبة. فالناس عادةً يحبون مساعدة الآخرين في هذه الظروف، حتى إن كانوا يظنون أن الطلب مبالغ فيه، إلا من كان بطبيعته حاد الطباع. ربما لأنهم بذلك يستطيعون أن يفخروا فيما بعد بالمعروف الذي أسدوه. لكن لم أجد أحداً أقدم له عذري. لم يكن أحداً يجلس خلف المنضدة. ولو أنني كنت أرتمي

نظارتِي قبل أن أقرب منها للاحظت خلو المكان.

تلقت في المكان بحيرة. ربما كنت قد مررت بأمين المكتبة وأنا مشغول بمسح نظارتِي دون أن أراه. لكن لم أجد أحدًا خلفي، والقاعة الطويلة خالية تمامًا. أشك بأنني مررت به ولم ألاحظه. وإن كنت لم ألاحظه، فإنه سوف يراني ويكلمني من كل بد. التفتت إلى المنضدة مرة أخرى مترددًا، ثم فهمت ما حدث. لا بد أن موظفي المكتبة لم يتوقعوا مجيء أحد، فذهبوا إلى إحدى الغرف الخلفية تأهبًا للعودة إلى منازلهم.

سعلت بصوت عالٍ، لكن لم يظهر أي شخص من الباب الجانبي الموارب، وهو المدخل الرئيسي إلى الغرفة الخلفية. كانت الغرفة التي يفضي إليها ذاك الباب مضاءة، لكنني لم أسمع أصواتًا من تلك الناحية. قلت: «مساء الخير». انتظرت قليلاً، ثم أعدت ما قلته بصوت أعلى. لا رد وصلني، والصمت يسود المكتبة.

وبينما أنا واقف لا أدري ما أفعل، انطفأت الأنوار فجأة. أحاطني الظلام من كل مكان، والنوافذ التي كانت شبه معتمة قبل ثوانٍ أصبحت هي المصدر الوحيد للضوء. تسربت من خلالها أنوار الشارع بوهجها البرتقالي، رغم أن طبقات الثلج خفتت من سطوعها. نظرت حولي وعينايتا تتأقلمان مع الظلام الجديد، أحاول جاهدًا أن أفهم ما جرى.

عندها، من مكان ما في الطابق السفلي، سمعت صوتًا حديدًا حادًا كصوت مفتاح يُدار في قفل. فهمت ما يجري متأخرًا. لا يحتاج طاقم

المكتبة أن يعبروا القاعة الرئيسية ليصلوا إلى الطابق الأرضي. فلا بد أنهم وصلوا إلى الدرج من طريق آخر، وأنا واقف أنتظر أمام منضدة أمين المكتبة. أو ربما أنهم استقلّوا المصعد. ويبدو أنهم أطفأوا التيار الكهربائي عن المبنى من المولد المركزي، وهذا إجراء احترازي معقول في منشأة كالمكتبة.

هتفت: «انتظروا!» وبدأت بالجرى. أصبحت السجادة في الظلام شريطاً طويلاً داكناً، سمح لي بأن أتحرك بسرعة رغم أنه لا يوجد ضوء. لكنني اضطررت إلى التحرك ببطء عندما وصلت إلى الدرج، فالظلام كان أشدّ في البهو عديم النوافذ. ولم يكن ثمة ضوء إلا ما تسرب عبر باب المدخل الزجاجي. تمسست بيدي أبحث عن حاجز السلم عن يميني، فأمسكته بقوة وبدأت بالنزول، لكنني للأسف تأخرت. لم يكن هناك أحد عند باب المدخل.

أدرت مقبض الباب في كفي ودفعته، لكن هذه المرة لم أشعر بالارتياح، بل بالغضب. كنت غاضباً من أمناء المكتبة. كيف يقفلون المدخل ثم يغادرون، دون أن يتأكدوا أن لا أحد في الداخل؟ صحيح أنني دخلت بعد الساعات المسموحة، ولكنهم ما زالوا على خطأ. ماذا لو أن لصاً دخل المكتبة؟ إن من الواضح أن في نظام الأمان في المكتبة عيوباً كثيرة. لكن اللوم في الحقيقة يلحقني أنا أيضاً فيما حدث. فلطالما احترقت الأشخاص الذين يؤجلون أعمالهم حتى آخر لحظة، وهذا ما فعلته

بالضبط باستعجالي. وكل هذا من أجل فيلم كان يمكنني أن أشاهده في وقت لاحق. بل وإن لم أشاهده بتاتاً فإنني لن أخسر شيئاً أبداً. هذا السخط والتأنيب لن ينفعني الآن. يجب أن أجد مخرجاً من هذا المبنى. أصابني فكرة احتجازي في المكتبة حتى صباح الإثنين بالفزع. لا يمكن أن أحتمل أبداً، رغم أنني لن أصاب بالملل طبعاً وأنا محاط بكل هذه الكتب. لكن قد تكون التدفئة قد أطفئت مع إغلاق التيار الكهربائي. قد يزداد المبنى برودةً بمرور الساعات. قد يجدونني متجمداً بعد يومين ونصف رغم أنني أرتمي معطفاً دافئاً. وماذا عن الضروريات الأخرى؟ لن أموت ظمأً، فدورات المياه تعمل على الأرجح، لكن كيف أقضي ستين ساعةً دون طعام؟ وأين أنام؟ لا يمكن أن أجلس وأقرأ طوال الوقت. هزرت رأسي ويدي ما زالت تمسك بمقبض الباب، كأنني أتوقع منه أن يتزحزح من مكانه. لا بد أن هناك حلاً.

ماذا كنت سأفعل لو أنني لص؟ اللص لن ينتظر قدوم يوم الإثنين ليفتح له أحد الباب. ماذا سيفعل اللص في مكاني؟

فكرت في الأمر لحظات. كل الأفكار التي راودتني كانت إما عنيفة جداً، أو خطيرة جداً، أو صعبة التنفيذ، أو تتطلب أدوات ليست في حوزتي. يبدو أنني في النهاية لن أعتمد على مواهبي اللصوصية الدفينة. ثم خطرت لي الفكرة. الحل البسيط الذي لن يخطر على بال لص، ولا في

أحلامه حتى. كل ما عليّ فعله هو العودة إلى منضدة أمين المكتبة واستعمال الهاتف. الهواتف تعمل حتى لو انقطعت الكهرباء. سأتصل بالشرطة، وأشرح لهم مازقي. قد يظنون أن في المكالمات خدعة وإضاعة لوقتهم، لكن حتى لو لم يصدقوني فورًا فسأظل أتصل إلى أن يرسلوا أحدًا ليتأكدوا من صدق قولي. وبعد ذلك سيكون الفرج قريبًا. سوف يأخذونني في الغالب إلى قسم الشرطة لأخذ إفادتي. لكنني مستعد لمواجهة بعض المتاعب مع الشرطة على احتمال الحبس في المكتبة ليومين ونصف.

حركت قدمي بحذر في الظلام الدامس الذي اكتفني عندما أدرت ظهري إلى المدخل. صعدت الدرج، ويدي تقبض على الحاجز بقوة. ورغم أنني لم أكن أرى شيئًا فإن الصعود لم يكن صعبًا، وخاصة أنني لم أكن مستعجلاً، وأنا أعلم أن كل شيء سيكون على ما يرام عندما أصل إلى القاعة الرئيسية. وهذا حقًا ما أحسست به. أحسست أن كل شيء على ما يرام. ليس بسبب الضوء الخافت الذي ينساب عبر النوافذ فحسب، بل أيضًا بسبب المصباح المضاء على منضدة أمين المكتبة. كان نوره ضعيفًا يحجبه الغطاء البلاستيكي الأخضر فوقه، ولكنه في تلك اللحظة كان في عيني من أشد الأضواء سطوعًا، كأنه مصباح كشاف.

تجمّدت قدمي فجأة عند مدخل القاعة الرئيسية مشدوها. كيف يعمل مصباح المكتب إذا كانت الكهرباء منقطة عن المبنى بأكمله؟ ربما أكون قد تسرّعت في تقديري للموقف. يبدو أن موظفي المكتبة أطفأوا أضواء

السقف فقط قبل خروجهم. لم أجد تفسيرًا ثانيًا. لكن حتى لو أن هذا صحيح، لا بد أن أحدًا قد أثار هذا المصباح، لأنه لم يكن مضاءً عندما غادرت الحجرة، ولا أحد غيري في المكتبة. أم أنني مخطئ في هذا أيضًا؟ فُتح باب الغرفة الخلفية كما لو أنه يجيب عن سؤال، ودخل شخص ما ووقف خلف المنضدة. كنت بعيدًا إلى حد ما، لكنني استطعت أن أتبين رجلًا طويلًا نحيلًا في منتصف العمر، يرتدي بدلة داكنة. اتجه إلى كرسي أمين المكتبة فجلس مركزًا انتباهه على شيء ما أمامه. لم يرفع رأسه أو ينتبه لوجودي. حتى لو أنه نظر باتجاهي فلن يراني بسهولة، لأنني متشح بالظلام حولي.

ظللت محتبئًا أحاول أن أفهم سر وجود الرجل هنا. لم يستغرق عقلي وقتًا طويلًا ليصل إلى تفسير. هذا هو الحارس الليلي طبعًا. لم أفكر بهذا من قبل؟ تنهدت بارتياح، انتهت متاعبي أخيرًا. لن أضطر إلى الاتصال بالشرطة. سأخبر الرجل بما حدث، ولن يجد سببًا لتكذيبي. ويمكنه أن يرجع إلى سجلات المكتبة بكل سهولة فيرى بنفسه أنني من أعضائها المواظين على ارتيادها منذ أعوام طويلة.

ومع هذا قررت أن أتصرف بحذر في هذه الظروف. فالحارس الليلي لن يتوقع طبعًا أن يخرج عليه أحد من الظلام. ومن يدري كيف سيتصرف؟ قد يصوب مسدسه نحوي، وهذا ما كان ينقصني!

سعلت وتقدمت تجاهه ببطء. قلت بصوت معتدل مبتهج:

- مساء الخير .

توقعت أن يقف، بل أن يهتّب واقفاً بفرع من مقعده. وكنت سأتوقف في هذه الحالة، فأسمح له بأن يتقدم نحوي، وأن يستجمع أعصابه ويفهم الموقف. أي حركة مفاجئة حتى وإن كانت مجرد السير تجاهه غير مستحسنة على الإطلاق، فقد يرى أن في حركتي تهديداً له. لكن ما حدث خالف كل توقعاتي. رفع الحارس بصره لينظر إليّ، ورد تحيتي دون أن يشوب قسامته أي اندهاش، وكأن ظهوري المفاجئ أمر طبيعي تماماً.

- مساء النور. كيف أساعدك؟

تقدمت من المنضدة. كان للرجل شارب سميك أسود مقصوص بعناية، وقد بدأ الشيب يغزو شعره. كانت بدلته من أفخر الأقمشة. ولون المنديل البارز من جيب صدرها يطابق لون ربطة عنقه. لا أدعي أنني أعرف الزي المعتاد لحراس المناوبة الليلية في المكتبات العامة، لكنني قطعاً لم أتوقع هذا! كأن مدير المكتبة نفسه بكامل أناقته يقف أمامي.

- أود أن أشرح لك. لقد تأخرتُ قليلاً...

قاطعني الرجل الجالس خلف المنضدة:

- لم تتأخر على الإطلاق. نحن نعمل في الليل. هذه هي المكتبة الليلية. حدّقت فيه بحيرة.

- المكتبة الليلية؟ لم أكن أعلم أن ثمة مكتبات ليلية.

- بل يوجد. وهي موجودة منذ زمن طويل. رغم أن قلة من يعرفون

عنا. أتبحث عن كتاب ما؟

-أجل. أنا أستمتع بالقراءة خلال نهاية الأسبوع. وكنت أخشى ألا يكون لدي ما أقرأه هذه المرة. إن من الرائع أن تكون الكتب متوافرة في الليل أيضًا.

-طبعًا متوافرة. رغم أن تشكيلة الكتب التي نعرضها تختلف عن الكتب المعروضة في فترة النهار. فليس لدينا سوى كتب الحياة. ظننتُ أنني أسأت فهم ما قال.

-عفوًا؟

-كتب الحياة. ألم تسمع عنها؟

هزرت رأسي.

-لا لم أسمع عنها.

-هذا مؤسف. أنصحك بأن تقرأها إذا. إنها قراءة مشوقة جدًا. فبخلاف ما هو شائع بين الناس، فإن الحياة الحقيقية أكثر تشويقًا وإثارة من تلك المختلقة.

-حياة من؟

-حياة كل إنسان.

-ماذا تقصد بكل إنسان؟

-أقصد ما قلته حرفيًا. حياة كل البشر الذين عاشوا في الدنيا.

تفرست لحظات في وجه الرجل الجالس خلف المنضدة. قلت:

-لابد أنها حيوات كثيرة.

-صحيح. مئة وتسعة مليارات، وأربعمائة وثلاثة وثمانون مليوناً، ومئتان وست وخمسون ألفاً، وسبعمائة وعشر حيوات. منذ اللحظة التي دخلتَ فيها إلى المكتبة.

لم أحر جواباً. تمنيت أن يفسر الغريب صمتي بأنه ذهول من المعلومات التي قالها. ما الذي يجري هنا؟ من هذا الرجل؟ إنه ليس الحارس الليلي، أنا واثق من هذا. لكنني أشك أيضاً بادعائه أنه أمين المكتبة الليلية. مهما تكن هوية هذا الرجل فيجب أن أكون حذراً. أنا محبوس معه في مكتبة مظلمة مقفلة. يجب أن أتحاشى النزاع معه. ألا أنفي أي شيء يقوله، أو أعارضه، وألا أدخل في جدال غير ضروري معه. عليّ فقط أن أتحين الفرصة التي أخرج فيها من هنا دون أي متاعب. فقدت فجأة كل اهتمامي بالكتب. قلت محاولاً إبداء ذهول يناسب عظم ما قاله:
- ما أكثرها!

-أجل. لكن لا تدع هذا العدد الضخم يخدعك. فرغم أن عدد الحيوانات كبير، فإن كل واحدة منها فريدة ولا مثيل لها. قيمة.. ولهذا فإنها تستحق أن تُسجّل. لهذا وجدت كتب الحياة.

-إذا لديكم أكثر من مئة مليار من هذه الكتب. إنها حقاً مكتبة ضخمة! فكرت أن شيئاً من التملق لن يضر. ظهرت ابتسامة فخر على وجه الغريب.
-صحيح. وهي مستمرة في التوسع. تجد تحديثاً يومياً يُسجل في كتب البشر الذين هم على قيد الحياة الآن. وعددهم أكثر من ستة مليارات!

والكتب الجديدة المضافة تصلنا بشكل مستمر. إن الجنس البشري يتوالد بلا حساب.
أومأت معجبًا.

- إن كنت قد أصبت في فهمك فإن كتب الحياة شبيه باليوميات.
- يمكنك أن تشبهها باليوميات. لكنها يوميات محايدة جدًا. وهذا هو سر تميزها. لا شيء يُمحي منها، ولا شيء يخفى عليها، ولا شيء يظهر بغير حقيقته. إنها صادقة جدًا، كما يجب أن تكون. مثل الأفلام الوثائقية.
سوف ترى بنفسك عندما تقرأ أحد كتب الحياة. أيها تريد؟
فكرت بالأمر ثم قلت:

- لا أعلم. ليس من السهل أن تختار من هذا العدد الكبير. أيها تقترح؟
- يميل معظم الناس إلى اختيار كتب حياتهم أولاً وهذا أمر غريب برأيي، لأن كل شخص قد قرأ كتابه فعلاً إن جاز التعبير. ومع هذا فالكثيرون يجدونه حافلاً بالمفاجآت والتجليات. فنسيان بعض الأمور أو تجاهلها هو ما يفعله معظمهم.

- أتقصد أن تقول إن ثمة كتاب عني أنا أيضًا؟
كانت دهشتي صادقة هذه المرة.
- طبعًا. لماذا تظن أنك مستثنى؟
ترددت قليلًا.
- حسنًا. سأخذ كتاب حياتي.

أجاب الرجل ذو البدلة الداكنة:

-حاضر. انتظر هنا لو سمحت. سأجلبه لك حالاً
نهض واتجه نحو الغرفة الخلفية، تاركًا الباب مفتوحًا وراءه. وقفت
في دائرة الضوء الصغيرة التي تحيط بمنضدة أمين المكتبة. أحسست
بالدفء يتسلل إلى جسمي. لا أدري بعد ما الذي يجري، ولكن طلبي
للكتاب سيجعلني أنني هذه الليلة بهدوء. سوف آخذ الكتاب الذي
يحضره، وأشكره ثم أغادر. سوف تيسر الأمور بعد أن أغادر المكتبة.
لم يكن ما أحضره لي الرجل بعد دقائق قليلة كتابًا، بل كان أقرب إلى
الملف الكبير. رزمة سميقة من الأوراق، تبرز من بين غلافين من
الورق البني المقوى. لاحظ الرجل حيرتي، فسارع إلى القول:

-إنها الطريقة الوحيدة لإضافة صفحات جديدة بعد كل تحديث. ولن
يجلّد الكتاب إلا إذا لم يعد هناك ما يضاف إليه. ولحسن حظك فإن ذلك
الوقت لم يحن بعد.

قالها وهو يبتسم. رددت ابتسامته بابتسامة، وأخذت الملف. كان ثقيلًا،
وقد طبع على غلافه اسمي وتاريخ ميلادي بأحرف زرقاء كبيرة. أما
التاريخ الآخر فكان خاليًا. تأبطت الملف، وأدخلت يدي في جيب
سترتي فأخرجت بطاقة المكتبة. قلت وأنا أمدّها إليه:

-أصلح هذه البطاقة في المكتبة الليلية أيضًا، أم أنها تستلزم اشتراكًا
منفصلاً؟

-لا حاجة للبطاقة. نحن لا نلتزم بالإجراءات الشكلية هنا. فأنت عضو تلقائياً بما أن أرفقنا تضم كتاب حياتك. ونحن لا نغير الكتب على أية حال، فلا حاجة حقيقةً للاحتفاظ بأي سجلات.
سألت مختاراً:

-لا تعيرون الكتب؟ أتقصد أنني لا أستطيع أن أخذه معي؟
-هذا مستحيل للأسف. إنها النسخة الوحيدة التي نملكها. وإن حدث شيء لها خارج المكتبة فهي خسارة لا يمكن تعويضها. كل أثارك سوف تختفي. كل ما سُجِّل فيه. سيكون الأمر كما لو أنك لم تكن حياً قط. لا يمكن أن نخاطر بذلك. لكنك تستطيع قراءته هنا على هذه الطاولة وأنت مرتاح. تفضل بالجلوس، وأنر المصباح. خذ من الوقت قدر ما تريد.
ما كان ينبغي أن أقبل الكتاب. كان يجب أن أشكره لعرضه الكتاب علي، وأتعلل بتأخر الوقت وإرهاقي، وأعده أن أعود في وقت آخر، ثم أغادر فوراً. لكنني لم أفعل هذا. انتصر الفضول المغرور. أي فرصة هذه التي يقرأ فيها الإنسان كتاباً يكون هو بطله الرئيسي؟ قلت لنفسي إنني لن أحتفظ به طويلاً، سوف أتصفحه فقط. جلست على أقرب طاولة وأنرت مصباحها، ثم وضعت الملف أمامي. أخفض الرجل الغريب رأسه خلف منضدته منشغلاً بعمله.

لولا أنني كنت مستعجلاً لقرأت الكتاب من بدايته، رغم أنني لن أستطيع الحكم على صحة المعلومات أو دقتها. من يتذكر أيامه الأولى

في هذه الدنيا؟ قلبت الملف وفتحته من الخلف. أردت أن أرى مدى حداثة المعلومات فيه. كنت أرى أن الأمر كله مضيعة ممتعة للوقت طبعًا، لكنني أيضًا شعرت برعشة توجس تضطرب في مكان ما في عقلي. شعرت كأني شخص لا يصدق بالتنبؤ بالغيب واقف أمام عراف سيكشف له مستقبله.

كانت الصفحة الأخيرة مكتوبة بخط متناهي الصغر. عنوانها الرئيسي هو تاريخ اليوم وقد اعتلى منتصف الصفحة. بدأت أقرأ من ذلك السطر. وبينما تكمل عيناى قراءة الأسطر التالية، أدخلت يدي في جيب معظفي، وأخرجت بطاقة السينما التي ابتعتها اليوم. قارنت بين رقم الصف والمقعد المكتوب عليها، والرقمين المسجلين في كتاب الحياة. ارتفعت غصة في حلقي. استحضرتُ الجملة الأخيرة في ذهني ذكرى واضحة. ساعة بهو المكتبة العامة التي يشير عقرباها إلى الثامنة وثلاث دقائق.

اختلست نظرة سريعة تجاه الرجل الجالس بثبات على كرسي أمين المكتبة. نظرت حولي وشعوري بالوجل في داخلي يتعاضم. أحسست فجأة أن عيونًا خفية ترميني بنظرات ثابتة، تخرق أسدال الظلام، تحديق بي من كل جانب. شئت هذا الإحساس تركيزي. لكنني ثابت على القراءة، رغم ما انتابني من شعور طاغٍ بأن ما سأقرأه لن يعجبني.

أخذت أقلب صفحات ملفي بنفاد صبر، متقدمًا من آخره نحو الماضي. بحثت عن تواريخ مميزة في حياتي. تواريخ وقعت فيها أحداث لا يعرفها

أحد غيري. أو أن المفترض ألا يعرفها أحد. أو لا يحق لأحد أن يعرفها. ومع هذا فقد عرفوا. كل شيء كان مكتوبًا أمامي، كل الحقائق الجافة، كأنها لائحة تهم مقدمة إلى محكمة. كل سر أخفيته ليس عن الآخرين فقط، بل وعن نفسي في غالب الأحيان. كنت عارياً في كتاب حياتي ولا سبيل لسري، كمجرم عتيد كُشفت جرائمه على رؤوس الأشهاد.

أغلقت الملف. تجمعت حبات العرق على جبينني، ولم يكن ذاك فقط لأنني كنت أرتدي معطفي. تسمرت في مكاني دقائق تملو عيني نظرة جوفاء. أطفأت المصباح، وقمت ببطء متجهًا صوب منضدة الاستقبال. وضعت كتاب حياتي المزعوم عليها. ابتسم الغريب، لكنني ظللت مقطبًا متجهًا. قلت بصوت منخفض:

-هذه ليست مكتبة ليلية. صحيح؟ وهذا ليس كتاب حياة. هذا ملفي. وأنت من الباحث أو الاستخبارات، أو جهة أخرى سرية. فأنا لا أعرف الكثير عن هذه الأمور. هنيئًا لكم، وأجدتم في عملكم. لم أكن أعلم أن هذه المراقبة الدقيقة أمر ممكن. شيء لا يصدق أبدًا. شيء مخيف جدًا. والآن... ماذا ستفعل؟ أنت تعلم كل صغيرة وكبيرة عني. لا يمكنك أن تتهمني بأي شيء، لكن لديك من المعلومات ما يمنحك سلطة علي كي تبتزني. هذا ما تنوي فعله. ألسنتُ محققًا؟ إن الشيء الوحيد الذي لا أفهمه هو السبب الذي دفعك إلى اختلاق تلك القصة السخيفة عن وجود مليارات كتب الحياة منذ بداية التاريخ، في حين أنك لا تحتاج إلى

أي ادعاء تختبئ خلفه؟ خاصة وأن القصة ليست مقنعة البتة.

- لا شيء مما قلته مختلق، رغم أنني لا ألومك على هذا الظن. كل شخص يقرأ كتاب حياته يصل إلى هذا الاستنتاج الذي وصلت إليه. وأنا أتفهم موقفك.

- لكن قصتك لا تخلو من ثغرات. لقد تجاهلت بعض التفاصيل، وإلا كيف عرفت أي ملف تحضر؟ فأنا لم أعرفك بنفسِي.

- نحن نعلم. كل شخص يدخل المكتبة الليلية إن عاجلاً أم آجلاً. وقد كان دورك الليلة. ونحن كنا في انتظارك.

- صحيح؟ وربما أنك تنتظر أحداً يأتي بعدي؟ إن كنت تنتظر أحداً فيؤسفني أن أخبرك أن المدخل مقفل. لا أحد يستطيع الدخول. وأي مكتبة ليلية هذه التي تقفل أبوابها في الليل؟ هاه؟

تعمدت تبطين قولي بالتهكم، لكن الرجل الجالس خلف المنضدة أجاب بهدوء:

- أنت مخطئ. المكتبة مفتوحة. سوف ترى بنفسك عندما تنزل إلى الطابق السفلي.

نظرنا إلى بعضنا بصمت لحظات طويلة، والابتسامة باقية على وجه الغريب.

- أتقصد أن بإمكانني المغادرة؟

- طبعاً. ومن يمكنه منعك من المغادرة؟ أبواب المكتبات مفتوحة للداخل والخارج دائماً. كل المكتبات هكذا، والمكتبات الليلية ليست

استثناءً. لا شيء يمنعك من المغادرة، إلا إذا أردت أن تقرأ كتاباً آخر.
لم أتردد في الإجابة هذه المرة.

-لا أريد أن أقرأ أي شيء. شكرًا.

-على الرحب والسعة. سرّتنا زيارتك. تصبح على خير يا سيدي.
أخذ الملف فوقف. أو ما برأسه يودعني ثم سار متجهًا إلى الغرفة الخلفية.
-تصبح على خير.

أحبته رغم أنه قد خرج، والباب يفصل بيننا. ظللت واقفًا أمام المنضدة
بضع دقائق حتى شعرت بأن الصمت يثقل حولي، وأعين الأشباح
الحادة تطعنني في ظهري من بين كنف الظلام. لم يعد الرجل. استدردت
ومشيت في الممر الطويل ذي السجاد الداكن، وكانت خطواتي تتسابق
مسرعةً دون أن أشعر. وقفت في نهاية القاعة، والتفت ورائي على
عجالة. رأيت أن المصباح قد انطفأ.

قبضت يداي حاجز السلم ونزلت إلى الطابق السفلي. أمسكت مقبض
الباب، لكنني لم أدره. ملأتني هذه الحركة البسيطة بالخوف للمرة الثالثة
في تلك الليلة. كانت المرات السابقة أسهل. لم أكن سأقع في متاعب
عويصة لو لم يفتح الباب. كل ما كان سيحدث هو أنني سأنزعج قليلاً.
كنت سأمضي نهاية الأسبوع بلا كتب أقرأها، أو كنت سأتصل بالشرطة
ليأتوا فيخرجونني من المكتبة.

أما الآن... فلا أجرؤ على تخيل مصيري إن كان الباب مقفلاً. سأكون

محتجراً بلا سبيل للخروج. ولكن لا يمكن أن أستسلم للتردد إلى الأبد. استدار مقبض الباب في راحة يدي بكل بطء. سحبت الباب فانزلت بنعومة نحوي. احتضنتني عاصفة مصغرة من كسف الثلج. خرجت بسرعة، وملاأت صدري من هواء الشتاء البارد. أغلق الباب خلفي أوتوماتيكياً.

وقفت أمام مدخل المكتبة، يداي في جيبي وياقة معطفي مرفوعة. لم يكن ثمة سبب يدفعني إلى البقاء، لكنني لم أرغب في الرحيل. قبل أن أغادر، استدرت للمرة الأخيرة لأنظر إلى المدخل. لم أستطع أن أرى ما بالداخل بوضوح عبر الزجاج. فخلف الباب يرتفع جدار كثيف من قطع الظلام. وساعة المكتبة متدلّية بنهاية طرفها، كأنها تطفو في الهواء، لأن القضيب الذي يوصلها بالسقف قد حجّبه أطياف العتمة. نظرت نظرة عابرة إلى سطحها الأبيض المستدير بعقريه وأرقامه.

لم يستوعب عقلي الأمر الغريب في البداية. ولم ينبهني عقلي إلى تلك الغرابة إلا بعد أن ابتعدت عن المكتبة بضع خطوات. تجمّدت قدماي في مكانهما، ثم ركضت عائداً إلى المدخل. ألصقت وجهي بالزجاج، وظللت بيدي عيني. سرت القشعريرة في جسدي. تراجعت عن الباب، ونزعت نظارتي، ورفعت معصمي الأيسر. كان ظني بأنني سأرى شيئاً مختلفاً واهياً مترعزاً. لكن ماذا بقي لي لأتمسك به؟ تبخر ذلك الإحساس فوراً كمعادتها الآمال العجفاء. كلتا الساعتين، ساعة المكتبة وساعة يدي، تشيران إلى الوقت نفسه: الثامنة وثلاث دقائق.

هزرت رأسي مكذباً عيني. مستحيل. لقد قضيت ساعة على الأقل داخل المكتبة. بل قد تكون ساعة ونصف، من هذا أنا واثق. كل لحظة ما زالت عالقة بتفاصيلها في ذهني. لا يمكن أن يكون ما مررت به في داخل المكتبة خيالاً من عقلي، أو توهمًا. لكن تيار الوقت لا يقف أبدًا. ومهما بلغت قوة الاستخبارات فلا يمكنهم التحكم في الوقت! إذا ما الذي جرى؟ لا بد أن هناك تفسيرًا.

لا توجد سوى طريقة واحدة لإيجاد الإجابة. يجب أن أدخل إلى المكتبة مرة ثانية. لم تعجبني الفكرة على الإطلاق، لكن العيش في ظل لغز يلفظه المنطق لبقية أيام عمري سيكون أصعب بكثير. ارتعش جسدي عندما امتدت يدي لتلمس مقبض الباب. دفعت الباب، لكنه لم يتحرك. حاولت مرة أخرى، بقوة هذه المرة، لكنه لم يتزحزح. المكتبة مغلقة كما يجب أن تكون. المكتبات لا تفتح أبوابها في الليل! لا يوجد شيء اسمه مكتبة ليلية. انتهت ساعات العمل، وغادر الموظفون إلى بيوتهم. تأخرت في الحضور.

أسقط في يدي ولم أجد بدءًا من الاستسلام إلى ما حكم به الموقف، خاصة أنني لا أعلم ماذا أفعل. لا أستطيع اقتحام المكتبة طبعًا. وحتى لو أردت كيف سأقتحم المكان؟ أنا لست لصًا، وليس لدي موهبة اللصوص. أحرصت الأصوات التي تعارض تراجعني. ما كان بوسعي أن أفعل؟ وما فائدة الوقوف في تلك العتمة والثلج؟ لن ينالني إلا الإصابة بالزكام

دون داعٍ، أو قد يشتهه بي شرطي في نوبة حراسته. دستت يدي في جيبي وأحسيت كنفِيّ، وسرت في الطريق مخترقاً ندف الثلج السميكَة. لم أبتعد كثيرًا هذه المرة أيضًا. توقفت فجأة بجانب أقرب مصباح من مصابيح الشارع، رغم أنني لم أعرف ما السبب. انتابني إحساس غامض بأنني نسيت شيئًا... أنني أغفلت تفصيلًا. نبشت في تلافيف دماغي، لكن لم أستطع اصطياده، كالكلمة التي تتأرجح على طرف لسانك لكنك لا تتذكرها. رفعت بصري إلى السماء. كانت ندف ثلج لا عدّها تتراقص حول دائرة الوهج البرتقالية الواسعة التي تطوّق مصباح الشارع، ثم تنساب ببطء إلى الأسفل محمولة فوق هبات الرياح. ما إن لامست وجهي حتى أمسكت ما تاه عني.

استدرت وركضت نحو مدخل المكتبة وأنا أكاد أنزلق على الجليد. لم أعد في حاجة إلى أن أظلل عيني من نور المصباح. لم أعد في حاجة إلى أن أنظر إلى الداخل، لأنني كنت أعلم ماذا سأرى قبل حتى أن أرى، رغم الظلام الذي يخيم داخل المكتبة. رأيت مقبض مظمتي يبرز من حامل المظلات النحاسية.

مكتبة الجحيم

توقف الحارس الذي يرافقني أمام باب في ردهة، فطرقه. انتظر بضع دقائق ثم بدا كأنها بلغه إذن بالدخول، رغم أن أذنيّ لم تسمعا شيئاً. فتح الباب ودفعني إلى الأمام دون أي كلمة. دخل بعدي إلى الحجره محكمًا قبضته على كتفي ليوقفني، ريثما يغلق الباب خلفه. لم يكن ثمة حاجة إلى الشدة في قبضته، لأنني لم أكن أعلم أين يمكن أن أذهب أو ماذا أفعل. ولكنه على الأرجح لا يفهم غير القسوة والصرامة. وقفنا أنا وهو بجانب الباب، ننتظر أوامر جديدة على ما يبدو.

كان السقف عاليًا عاليًا، ككل شيء آخر رأيتُه هنا. وكان تأثير الارتفاع أشد في هذه الحجره، لأن المسافة بين الأرض والسقف أطول بكثير من طول الحجره وعرضها. أصابني فجأة الدوار وأنا أتصور أن الحجره ستكون طبيعية لو أن السقف وأحد الجدران تبادلًا مكانيهما. لكنني طبعًا لا أتوقع أن هذا المكان سيخضع لقوانين الطبيعة. ولى ذلك الزمان وراح من يدري أي خوارق سأشاهدها هنا؟ يجب أن أحضر نفسي للأسوأ.

كانت الحجره ضعيفة الإضاءة، قليلة الأثاث. من سقفا يتدلى مصباح واحد بسلكٍ طويل، وتغطيه مظلة معدنية دائرية، تجعله يطرح معظم نوره على كرسي خشبي، يقف وحيدًا في منتصف الحجره. كان هناك رجل لم يظهر منه إلا ما فوق الكتفين، يجلس إلى مكتب مقابل الباب

موليًا الجدار ظهره. بدا مركزًا على ما تعرضه شاشة الحاسوب أمامه. رأيت من وهج الشاشة التي لم تحلّف أي ظل وجهه الطويل شاحبًا كما الأشباح. اختلط الشيب بلحيته الكثة القصيرة، وكان يرتدي نظارة قراءة ذات عدستين نصف مستديرتين. لم أستطع تحديد سنه. قد يكون ما بين بداية الأربعين حتى نهاية الخمسين.

لم يبد أنه لاحظ وجودنا. وقفنا أنا والحارس بصبر، ساكنين كتمثالين. وأخيرًا، ودون أن يبعد الرجل عينيه عن الشاشة، رفع يده اليسرى وأشار إشارة سريعة لم يفهمها إلا الحارس. أمسك الحارس كتفي بعنف مرة أخرى، ودفعني تجاه الكرسي الذي يتسلط عليه النور. ولم يفلتني إلا بعد أن جلست، ووقف خلفي مباشرة.

أخذت نظراتي تهيّم في المكان وأنا أنتظر. زاد لون الحجر الموحّد إحساسي بالاختناق الذي أثاره علو سقفها. درجة سقيمة من درجات الرمادي المخضّر غطت كل شيء: الجدران، والسقف، والأرضية، والكرسي، والمكتب. حتى الحاسوب كان بذلك اللون. وطلاء الجدران متصدع متقشر في مواضع متفرقة، كاشفًا رقعًا من الجبس الجاف بلون السماء العاصفة. شعرت كأننا بداخل علبة حذاء مقلوبة، كانت في يوم ما خضراء، فبهت لونها وبلي قوامها.

لو أن في الحجر نافذة لبدت أقل كآبة، حتى وإن كانت ذات قضبان. لكن لم يكن هناك نوافذ. إن العمل في مكان كهذا لا يمكن إلا أن يعد عقابًا. نظرت إلى الرجل الجالس خلف الحاسوب بمزيج من الشفقة والتوجس.

حتى لو لم أتطير من منذرات الشؤم التي رأيتها هنا، فلا يمكن أن أتوقع خيراً يأتي من شخص مجبر على العمل في هذا المكان لأي فترة مهما قصرت. قطع صوت نقرات أصابع الرجل على لوحة مفاتيح لا يمكنني رؤيتها سكون الحجرة العميق على حين غرة. لم يطل نقره السريع، وعندما انتهى رفع رأسه وخلع نظارته، ثم وضعها بجانبه على المكتب. أغلق عينيه بشدة، وقرص قصبته أنفه بسبابته وإبهامه. ظل على تلك الوضعية لحظات طويلة، ثم فتح عينيه وأوماً برأسه إلى الحارس. ابتعد الحارس بخطوات سريعة. فتح الباب المعدني فأصدر صريراً، ثم خرج فأغلقه وراءه.

بقينا ننظر إلى بعضنا البعض دون كلام برهة طويلة. شعرت بالضيق من نظراته الفاحصة الصامتة التي تعبر عن المقت والغضب، أكثر من القسوة أو التوعد. أدركت بسرعة أنه لم يكن يتطلع إلى الحديث معي. كانت تصرفاته توحى بأنه قضى في وظيفته هذه زمناً طويلاً حتى إنها خدّرت حواسه. لقد رأيت التعبير ذاته على وجوه بعض المحققين والقضاة المسنين. أطلق الرجل أخيراً زفرة من صدره، ومسّد جبينه العالي بأصابعه. ثم كسر حاجز الصمت.

- أنت تعلم أين أنت، أليس كذلك؟

كان صوته عميقاً وكلماته ممطوطة. ترددت لحظة، ثم أجبت:

- في الجحيم.

- هذا صحيح. رغم أننا لا نستعمل هذا الاسم الآن. هل تعلم لماذا

جئت إلى هذا المكان؟

لم أجب فورًا. كان من الواضح أن لا جدوى من التستر أو الإنكار، لكنني لن أجرّم نفسي أيضًا.

-اعمم... يمكنني أن أخن السبب...

رفع صوته وهو ينقر الشاشة بمفصل الوسطى:

-تحمن السبب؟ لا نرى ملفًا مثل ملفك هنا إلا نادرًا.

-ربما يمكنني أن أشرح لك...

-إياك! أعفني من الأكاذيب لو سمحت. يا لوقاحتكم! أنت وكل من

يجلس في مكانك. لا يكفي أن أعرف الأشياء المقززة التي اقترتموها،

بل تريدونني أيضًا أن أستمع إلى تبريراتكم الزائفة القذرة. إنها تثير

اشمئزازي أكثر من جرائمكم نفسها. لا يوجد ما تشرحه على أية حال.

كل شيء واضح كقرص الشمس. نحن نعرف كل شيء عنك. كل

التفاصيل. وهل كنت ستجلس مكانك هذا لو لم نكن نعلم؟

قلت بهدوء:

-لا مناص من وقوع بعض الأخطاء.

-لا توجد أخطاء. وحتى لو كانت هناك أخطاء، فقد فات أو ان تصحيحها.

لا سبيل للخروج من هنا. متى ما دخلت إلى هنا فستبقى إلى الأبد.

كنت أعرف هذا طبعًا. كل شخص يعرف ذلك. لكن أيلومني أحد إن

حاولت النفاذ بجلدي؟

سألت بأكثر النبرات خنوعًا:

-وماذا عن التوبة؟ أها أي قيمة؟

لم يضطر هذه المرة إلى الرد على سؤالِي. أجابتنِي ملامح وجهه، وأخبرتنِي بوضوح عن رأيه بندمي.

-لا تتعب نفسك. لا وقت لدي لهذا الهراء. أنا غارق في العمل. لم أرَ

العالم على حاله هذه من قبل. أتتخيل ثقل الحمل على كاهلي؟

يمكنني أن أتخيل. لكن بما أن السؤال كان مجازيًا فلم أجد إلا أن أرفع

كتفي. ظننت للحظة أن الرجل يريد أن يشكولي متاعبه، لكنه غير رأيه.

-انس الأمر. لا يهم. فلندخل في صلب الموضوع. يجب أن نعرف أكثر

شيء يناسبك.

سألتُ بحذر:

-يناسبني كعقاب؟

-نحن نسميّه علاج.

-الاحتراق في النار علاج؟

-ومن تحدث عن الاحتراق في النار؟

-إذا ستغلونني في الزيت، أو تجرونني ثم تقطعونني إلى أربعة...

-ما هذا الخيال المبتذل؟! أتظن أننا نعيش في العصور الوسطى؟

-آسف. لم أكن أعلم...

-كم يذهلني أعداد الذين يأتون إلى هنا وفي أذهانهم أفكار مغلوطة!

أتظن أننا نعيش خارج الزمان؟ أن لا شيء يتغير هنا؟ أترى أن هذا
(وطرق جانب الشاشة) يتماشى مع تلك الوحشية والهمجية؟
أجبت بسرعة:

- لا طبعًا.

- لكل زمنٍ جحيمه. وجحيم اليوم هو المكتبة.

رفت عيناى بحيرة.

-مكتبة؟

-أجل. المكتبة.. المكان الذي يقرأ فيه الناس كتبًا. ألم تسمع عن المكتبات

من قبل؟ لماذا يندهش الجميع عندما يعرفون ذلك؟

-لأنه أمر... غير متوقع.

- صحيح، إذا لم تمنع التفكير بالأمر. لكن عندما تدرس الموضوع،
سترى أن لا عجب فيه إطلاقًا.

-لم يكن ليخطر الأمر في ذهني.

-في الحقيقة، لقد تفاجأنا نحن أيضًا بالفكرة في البداية. لكن ما أفادنا به

الحاسوب لا لبس ولا جدال فيه. إنه حقًا آلة مفيدة.

توقف عن الكلام. مرت لحظات قبل أن أفهم أنه يريد أن أوافقه الرأي.

-كلامك صحيح. مفيدة جدًا.

-خاصة في البحث الإحصائي. فعندما أدخلنا بيانات كل شخص هنا،

ظهر أن الصفة المشتركة بين أكبر عدد من نزلنا، 12. 84. بالمائة تحديدًا،

هي كرههم للقراءة. وكان هذا منطقيًا في 26.38 بالمائة من الحالات، لأنهم أميون. لكن ماذا عن الـ 47.71 بالمائة الذين يستطيعون القراءة، لكنهم لم يمسكوا كتابًا واحدًا في حياتهم، وكأن الكتب تنقل الطاعون؟ أما العشرة بالمائة المتبقية فهم يقرأون من حين لآخر، لكنهم لم يجنوا غير إضاعة أوقاتهم لأنهم لم يستفيدوا أبدًا.

هززت رأسي.

-أمر بالغ الغرابة.

نظر إليّ شزرًا.

-لماذا تتعجب؟ فكر بنفسك. كم كتابًا قرأت؟

فكرت قليلاً أحاول أن أتذكر.

-أمم... في الواقع... ليس الكثير.

-ليس الكثير؟ سأخبرك كم بالضبط. (سمعت نقرات أصابعه على أزرار

لوحة المفاتيح مرة ثانية) خلال السنوات الثمانية والعشرين الماضية من

حياتك، بدأت في قراءة كتابين. وصلت في الأول إلى منتصف الصفحة

الرابعة، أما الثاني فلم تتعدّ الفقرة الافتتاحية.

أجبت نادماً:

-لم يجذب اهتمامي.

-صحيح؟ والأشياء الأخرى التي فعلتها هي التي جذبت اهتمامك؟

-لم أكن أعلم أن ترك القراءة من أكبر الآثام.

-إنها ليست إثماً. رغم أن العالم سيكون مكاناً أفضل لو كان هجر القراءة
إثماً. لم يُرسل أحد إلى الجحيم من قبل لأنه هجر القراءة. ولهذا لم نعرف
أن هذه الصفة مفقودة، إلا بعد أن أحضرنا الحاسوب. لكن بعد أن نبهنا
الحاسوب إلى هذه العلاقة المفقودة استطعنا استغلالها بشكل جيد. وفي
طرق شتى. بل يمكنك أن تقول إن هذا أدى إلى تغيير كامل لمفهوم الجحيم.
-لا أحد يعلم هذا.

-طبعاً لا أحد يعلم. وكيف يعلمون؟ من هنا تنبع كل الأفكار المغلوطة.
لم يكن الجحيم قط بالصورة التي يتخيلها معظم الناس. إنهم يتخيلون
أنها حجرة تعذيب أبدية، يديرها ساديون عديمو الرحمة. قل لي، أتشم
رائحة الكبريت التي لا ينفك الناس يتحدثون عنها؟

شممت الهواء من حوالي. كان جافاً ثقيلًا، تتعلق به رائحة عفونة. كان
الرجل صادقاً.

-لا أشم شيئاً.

-كان الجحيم مجرد سجن. صحيح أن فيه بعض المميزات الخاصة، لكن
النظام هنا لم يكن يختلف كثيرًا عما هو مطبق في سجونكم. كنا نعامل نزلاءنا
هنا بالمعاملة نفسها التي يتلقاها نزلاءكم. ولماذا نختلف عنكم؟ فإن كان ثمة
وحشية وعنف هنا، فما ذلك إلا لأننا نحتذي مثلكم. ومع تحسن الأحوال
في سجونكم مع مرور الوقت، أصبحت الأوضاع هنا أكثر احتمالاً. بل إن
الأمر تحسنت، إلى درجة أننا خشينا أننا نناقض المنطق بتسمية المكان جحيمًا.

-ماذا تعني؟

-لقد أصبحت سجونكم مؤخرًا تشبه مراكز الاستجمام، بل هي أقرب ما يكون إلى الفنادق الرخيصة. وأنت خير حكم عليها. ألم تقضِ وقتًا طويلاً في السجون؟ أكانت غير مريحة؟

فكرت في السؤال لحظة، ثم أجبت:

-كلا.. أنت محق. رغم أن الأكل لم يكن جيدًا في كل السجون... خاصة الحلوى.

هربت تنهيدة عابرة من فم الرجل الجالس خلف الشاشة.

-أترى؟ لا نستطيع طبعًا أن نسمح ببعض تلك الامتيازات هنا. مثل إجازات نهاية الأسبوع، أو استخدام الهواتف المتنقلة. كيف ستكون سمعتنا لو سمحنا؟

-لكن هذا سوف يسهل فترة المحكومية...

-ربما. لكن يجب ألا ننسى أبدًا أن هذا هو الجحيم. لذا وجدنا أنفسنا في مأزق. لم يعد بإمكاننا اتباع الأوضاع المخففة التي تطبقونها في سجونكم. فقد كنا مهتدين بفقد الصفة الوحيدة التي أهتمنا بها منذ فجر التاريخ: أن الجحيم هو تجسيد للوحشية، وسلب حقوق الإنسان، وسحق بشريته. ومن حسن الحظ أننا اكتشفنا عندها ترك الناس للقراءة.

-عفوًا، ولكنني لا أرى أي علاقة.

-الأمر بسيط. لقد جعلنا القراءة إجبارية على الجميع، مما أتاح لنا الجمع

بين المفيد والجميل. فالغاية هي أن يتخلص نرلاؤنا من العيب الرئيسي الذي رماهم هنا. فلو أنهم قرأوا أكثر لما كان لديهم الوقت ولا الدافع ليرتكبوا ما ارتكبوه. فالقراءة وسيلة علاجية فعالة لهؤلاء. نعم.. ولهذا نحن نعتبرها علاجًا لا عقابًا، حتى وإن فات أوان العلاج. لكن الحقيقة هي أن الأوان لا يفوت أبدًا لتقديم العلاج المناسب. وماذا نسمي المكان الذي يجب أن يقرأ فيه الناس؟

-مكتبة؟

رفع الرجل يديه في الهواء عاليًا.

-أحسنت. والمكتبة هي آخر مكان يمكن أن تسلط عليه التهم بانتهاك حقوق الإنسان. وفي الوقت نفسه، فقد أزلت هذه الخطوة وصمة العار التي التصقت بنا. إضافةً إلى هذا فقد اكتشفنا أن إنسانيتنا تفوق إنسانيتكم بأشواط، إذا ما قارنا بين معاملتنا ومعاملتكم في السجون. صحيح أن لديكم مكتبات في السجن، لكن ما الفائدة ولا أحد يستعملها إلا فيما ندر؟ إن وجودها مثل عدمه. ولنأخذك مثالاً للمرة الثانية. أدخلت مكتبة أي سجن من السجون العديدة التي عشت فيها؟ أجبت صادقًا:

-لم أكن حتى أعلم أن هناك مكتبات في السجون.

-أصدقني الآن؟ لكن لا تقلق، سوف تسنح لك الفرصة لتعويض ما فاتك. بل سوف تعوض ما فاتك أضعافًا مضاعفة. فإن أمامك أبدية لا

نهاية لها تقضيها في القراءة.

حدقت في الرجل لحظات طويلة دون حديث. قلت بعد حين:

- أهذا هو عقابي؟ أن أقرأ؟

- علاجك.

- علاجي.. نعم. ولا شيء غير القراءة؟

حاولت أن أكتم نبرة الارتياح في صوتي، لكنني لم أنجح.

- لا شيء غير القراءة. سوف تجلس في زنزانتك وتقرأ. هذا كل ما

ستفعله. لن يكون لديك أي التزامات أخرى. لكن يتعين عليّ أن أنبهك

أن الأبدية زمن طويل جداً. وقد تسأم القراءة بعد حين. هذا ما يحدث

لكثير من نزلائنا، فيحاولون عندها أن يتذاكوا. كم من حيلة حاولوا

خداعنا بها! يوهموننا أنهم يقرؤون رغم أنهم لا يفعلون. لكن لدينا

طرق نكشف بها مكرهم. وفي تلك الحالات فنحن نضطر آسفين إلى

استعمال وسائل عنيفة لإجبارهم على العودة إلى القراءة. وهي وسائل

موجعة لمن يتشبث بعناده ويقاوم.

- وماذا عن الإنسانية؟ وحقوق الإنسان؟

- نحن لا نمسّ شعرة منهم. كلّ ما نفعله هو لمصلحتهم في النهاية. لا

يصح أن ندعهم يؤذون أنفسهم بسبب قلة إيمانهم بجدوى العلاج.

قلت بغير اقتناع:

- أجل.. لا يصح.

-هذه هي النقاط الأساسية التي يجب أن تعرفها. سوف تألف أحوال هذا المكان. ستواجه صعوبة في البداية إلى أن تعتاد على الأوضاع، لكنك ستكتشف بنفسك أن القراءة تمنحك رضا لا يعادله رضا. هذه هي الحقيقة التي يتعلمها الجميع أثناء قضائهم محكوميتهم الأبدية، وبعضهم يتوصلون إلى هذه الحقيقة بسرعة، والبعض الآخر يستغرقون قليلاً من الوقت. وآمل أن يكون سلوكك ناضجاً محترماً، وألا تضطرننا إلى اللجوء إلى القوة. سوف تسهل حياتك وحياتنا.

أومأت برأسي لأظهر له موافقتي التامة. ولأول مرة ارتفعت زاويتي فم الرجل إلى الأعلى قليلاً، كاشفةً عن شبح ابتسامة.

-ممتاز. والآن فلنرأي علاج يناسبك. ما نوع الكتب التي تود أن تقرأها؟ كان سؤالاً صعباً فترثت قبل الإجابة. قلت بنبرة غير واثقة:
-القصص البوليسية... ربما.

زوى الرجل ما بين حاجبيه، وأجاب:

-طبعاً لا! سنكون كمن يداوى مريضاً بالسم! لا لا أنت تحتاج إلى عكس ذلك تماماً. شيء لطيف ومريح يثري عقلك، مثل الأدب الرعوي. أجل... هذا هو الخيار الأنسب لمداواة روحك. قصائد عن الحياة الريفية. نحن نصف هذا الدواء غالباً لنزلائنا. وإن لها تأثيراً استثنائياً عجبياً.

أظنه رأى على وجهي تعبيراً لا يُفسر إلا بأنه تقزز، لأنه عندما تحدث

بعد ذلك كان صوته مدبياً كالسكاكين، كما كان في بداية الحديث.
- إن كنت تظن أن هذا ظلم، فواسِ نفسك بأن تذكرها أنني مستعد
لفعل المستحيل كي أكون مكانك... أن أستمع بالقصائد الريفية، ولو
لفترة قصيرة. لكنني لا أستطيع مع الأسف. لن يسمحوالي. وأنا مجبر
على ألا أقرأ إلا الفطائع والفواحش التي تتدفق من هنا (و ضرب الشاشة
ثانية، لكن هذه المرة من فوق) مثل المياه التي تنفجر من سد متصدع.
والأبدية ليست أقصر ولا أخف عليّ مما هي عليك. إنه ظلم. فمتى ما
وصلت حد الانهيار، تذكر كم أنني أحسدك، وعندها سينشرح صدرك.
توقف عن الكلام. بدالي فجأة أن ارتفاع الحجرة الشاهق المتنافر ولونها
المقرز قد التحم به، فأصبح وجهه قناعاً من الحقد اليأس. نظر إليّ
مطولاً وعيناه لا تكشفان أي شيء. مد يده نحو نظارته فارتداها بعد
أن أدار وجهه صوب الباب خلفي. لم ينبس بأي كلمة، ومع هذا فقد
سمعت صرير الباب معلناً دخول أحد. وجدت يد الحارس القاسية
كتفي. نهضتُ عن الكرسي واتجهت إلى خارج الحجرة. حانت مني
التفاتة تجاه الرجل الجالس خلف المكتب وأنا أخرج. كان قد استغرق
تماماً في قراءة ملف جديد، منهمكاً بالنظر إلى شاشته. أُغلق الباب بيننا
فحجبه عن عيني، وبدأت أسير عبر الردهة مع الحارس نحو زناتي
حيث تنتظرني القراءة الأبدية كما تنتظره.

أصغر مكتبة

لم أدرك أن معي كتابًا زائدًا إلا بعد أن وصلت إلى المنزل. كان يجب أن يكون هناك ثلاثة كتب في الكيس البلاستيكي، لكنني أخرجت منه أربعة. كان الرجل العجوز قد وضع الكتب في كيس قديم متغضن، ملطخ ببقعة سوداء من الخارج. لم أعلق على الكيس، لأنني لم أود أن أجرح مشاعره. فكيف أقول له إنني لا أهتم إن ابتلت الكتب التي أعطاني إياها بمياه المطر؟ كان الأمر سيكون مختلفًا طبعًا لو أنني أحضرت معي مظلة، لكن السماء لم تنذر بالأمطار عندما غادرت منزلي. كان العجوز يشبه كيسه شبهًا كبيرًا. فهو في أرذل عمره، ذو وجه متغضن بالتجاعيد، ولحية رمادية يتخللها الشعر الأسود كأنه بقايا طعام متعلقة بها. ولم تختلف ملابسه عن وجهه. فكان معطفه الطويل المهلهل المتسخ الذي يكاد يكنس الأرض مرقعًا هنا وهناك، وكانت أزراره كلها مغلقة حتى عنقه، رغم أن الطقس لا يستدعي هذا. فقد كنا في بداية الربيع، والجو دافئ على غير العادة تتخلله زخات مطر مباغتة. ولو أنني قابلت هذا الرجل في أي مكان آخر لظننت أنه متسول.

لكن منظر الرجل العجوز المنقر لم يكن غريبًا بين باعة الكتب المستعملة الذين يعرضون بضائعهم في كل يوم سبت في ذات المكان طوال العام،

حتى في أشهر الشتاء القارسة، تحت الجسر العظيم. كانوا يحضرون طاولات قابلة للطي، أو سلال بلاستيكية كتلك الخاصة بنقل المياه المعدنية، أو صناديق كرتونية كبيرة يغطونها بأوراق الجرائد، فيصنعون منصات عرض مؤقتة. ولولا وجود الكتب على هذه المنصات، لكان المكان أشبه بسوق السلع المستعملة.

لكن المظاهر خدّاعة. فهؤلاء ليسوا مجرد باعة متجولين لا يعرفون عن بضاعتهم إلا بعض المعلومات اليسيرة. يرى الشخص مظهرهم أشعث شبيهاً بالمشردين ويرى المكان الذي يعرضون بضاعتهم فيه فيحتقرهم، لكنه إن تبادل بضع كلمات معهم سيكتشف بسرعة أنهم خبراء ضليعون بعالم الكتب. فعندما تبدي اهتماماً بأحد الكتب المعروضة، ينبري البائع بتقديم كنز من المعلومات عن المؤلف، والناشر، والنقد الذي تلقاه الكتاب، وآراء القراء به، والطبعات السابقة أو اللاحقة له. بل قد تسمع أحياناً تاريخاً مفصلاً عن نسخة محددة، تكون أكثر متعة وإثارة من بقية النسخ.

وكانت هذه المعلومات صحيحة دقيقة، كما لو أنك قد اطلعت عليها في موسوعة أدبية. ولا شيء لدى هؤلاء الباعة يُخفى أو يُدبج ليبدو أكثر إثارة من حقيقته، كما هو متوقع من أولئك الذين لا يهمهم سوى الترويج لبضائعهم. بل إنك أحياناً تشعر بأنهم يقصدون بما يحكونه لك إثناءك عن شراء الكتاب.

منذ أكثر من عام وأنا أتجول كل يوم سبت تحت الجسر العظيم، من أجل هذه الحوارات مع باعة الكتب. وأشتري في النهاية كتابًا أو كتابين، لا لأنني أود أن أقتني هذه الكتب ولكن لأنني أريد مكافأة هؤلاء الأشخاص الذين تلهب كلماتهم مخيلتي، فتدفعني إلى الكتابة والتأليف. ومع مرور الوقت، عقدت صداقات مع بعض باعة الكتب الذين اعتدت على رؤيتهم هناك، وبذلك استمتعت باهتمامهم الخاص بي بصفتي زبونًا منتظمًا. فمتى أتيت أكشاكهم يسارعون إلى سحب كتب من تحت الطاولة كانوا قد احتفظوا بها لأجلي. ولم يكونوا يسمحون لأحد بقطع الحديث بيننا، حتى لو كلفهم هذا زبونًا آخر قد يكون مستعدًا لدفع المزيد من المال. وقد كدت أقترح أكثر من مرة أن نكمل مناقشاتنا في مكان آخر، لكنني أحجم دائمًا. فلسبب ما، كنت أشعر أن الحديث سيفقد طعمه، فكانوا بالنسبة لي كأنهم لا يعيشون في مكان آخر غير هذا السوق.

لم أكن قد قابلت ذاك العجوز من قبل. كان قد أقام كشكه في طرف الجسر لأن جميع الأماكن الأخرى تحت الجسر كانت مشغولة، فأصبح كأنه منبوذ من بقية الباعة. وما أن تتساقط أولى قطرات المطر، فإنه سيسارع حتمًا في الاحتماء تحت مكان مظلل. ولن يكون هذا في الحقيقة صعبًا عليه، لأنه كان الوحيد الذي يملك عربة متحركة. كانت عربته في يوم ما، منذ دهر سحيق، عربة لبيع الثلجات، وهي عبارة عن عربة

ذات صندوق خشبي، بعجلتين كبيرتين وذراعين طويلتين لدفعها. لم أر مثلها منذ كنت طفلاً. وقد بات طلاؤها الزاهي الذي كان يزينها في شبابها باهتاً متقشراً، ورغم ذلك فقد كان باستطاعتي أن أُميّز فيها صورة المثلجات مرسومة في مقدمة العربة.

كان الباعة الآخرون يتركونني أتصفح كتبهم المعروضة دون أن يبدو تعليقاتهم. ولم يكونوا يبادرون بالحديث معي، إلا إذا سألت أحدهم سؤالاً أو اخترت كتاباً. وهذا كان العرف السائد المتفق عليه. فإما أن الرجل العجوز لم يكن يعرف هذه العادة، أو أنه لم يهتم باتباعها. بادرنى بالحديث فور اقتراي من عربته. قال بصوت أجش؛ صوت من اعتاد التدخين بلا انقطاع:

-لديّ ما تبحث عنه.

-وكيف تعرف أنني أبحث عن أي شيء أصلاً؟

كانت لهجتي خشنة قليلاً، وكانت عيناى تجولان بين الكتب القديمة التي غطت عربته. كان قد استبدل الغطاءين المعدنيين مخروطين الشكل اللذين كانا يُستعملان لحفظ المثلجات بلوحيين من الخشب غير المصقول. وعلى اللوحيين تكدست كتب قديمة دون ترتيب، كأنها ألقيت من حقيبة بلا عناية.

-ليس من الصعب التكهن بذلك. فهو مكتوب على وجهك.

-مكتوب على وجهي؟!!

سألت محتارًا وأنا أتفحص العجوز. وقد أدركت في تلك اللحظة ما لم أدركه عندما نظرت إلى وجهه أول مرة. كان رأسه ملتفتًا ناحيتي، لكن عينيه كانتا تحدقان في مكان آخر بلا تركيز. كان الرجل كفيفًا. قال:

-نعم. إن كنت تعرف كيف تنظر.

-أجل.

أجبتُه وأنا أومئ برأسي. وزاد من ارتباكِي تنبهي إلى أن تحريك رأسي لن يعني لهذا الرجل شيئًا.

هجمت نوبة سعال غليظة على العجوز بغتة، كأن سعاله صدى هزيم رعد آتٍ من مسافة بعيدة، أو كأنه يصدر من أعماق رثتيه. غطى فمه بيده العجفاء، وأمسك بالأخرى صدره وأحنى رأسه. بقي على ذلك الوضع لفترة ليست قصيرة.

قال هامسًا بعد أن استردّ أنفاسه:

-أنت كاتب. أليس كذلك؟

سألت بهمسة تماثل همسته:

-أويظهر هذا على وجهي أيضًا؟

لم يجب فورًا لأن أنفاسه المتحشجة منعتة.

-لا لكن ثمة رائحة تنبعث منك. للكاتب رائحة خاصة بهم. وكلما

تعسرت كتاباتهم فاحت الرائحة، وازدادت قوة. ألم تكن تعلم هذا؟

تشممت الهواء من حولي دون قصد مني. ما شممته كانت رائحة النهر؛

رطوبة محملة بآثار مجروفات متعفنة جلبها فيضان الربيع. اعترفت له بجهلي:
- لا لم أكن أعرف.

- لا عليك. ما يهم هو أن هناك علاجًا لحالتك. وسوف نجده فورًا.
بدأ يتفحص كومة الكتب بأصابعه. كان يأخذ الكتاب فيتحسس برفق،
ثم يعيده إلى الكومة، أو يضعه جانبًا كأنه يرى بيديه. وعندما فرغ من
الاختيار أعطاني ثلاثة كتب.

- خذ. هذا ما تحتاجه. سوف تساعدك.

ترددت قليلاً، ثم قبلت منه ما ناولني. كانت الكتب بالية. لم يكن للأول
أي غلاف، وكانت زوايا صفحاته الأمامية والخلفية مطوية من كثرة
الاستعمال. والثاني قد دُمّر تمامًا بخربشات قلم لا يرحم. أما الثالث
فقد اهترأ كعبه حتى تمزق. وقد تجمّع الغبار على الكتب الثلاثة جميعها.
لم أجد سببًا لشرائها، خاصةً وأنني أملك نسخًا من الكتب نفسها أفضل
بكثير من هذه الطبعات.

قررت أن أشتريها رغم عيوبها. لن أستفيد منها شيئًا، لكن كيف أردّ
شيئًا أعمى؟ لكن لم يكن دافعي للشراء هو الشفقة فحسب، فبراعته في
البيع تستحق أن تُكافأ. وادعائه أن للكتاب رائحة تميزهم كان ترويضًا
مبتكرًا لبضاعته، رغم أنني أعرف أنه لم يشم أي شيء طبعًا. قد أكتب
عن هذه الحادثة في كتابي يومًا ما.

بينما كنت مسرعًا نحو المنزل، أدركت أنه لا توجد إلا طريقة واحدة

عرف بها الرجل مهنتي. فقد كنت أتحدث مع أحد الباعة الذين أتردد كثيرًا على محالهم، وكان كشكه يبعد عن عربة العجوز بضعة أمتار. سألتني البائع عن كتابي الجديد، ورددت عليه ردًا مقتضبًا. ولما شعر البائع أن لا رغبة لي في الكلام عن كتابي، أدار دفة الحديث نحو موضوع آخر لم نكن قريين جدًا من العجوز الكفيف، وكنا محاطين بحشد مزعج، فعلى الأرجح أنه لم يستطع سماعنا. لكن من فقد بصره يُعوّض بسمع حاد. سألته وأنا أخرج محفظة نقودي:

-كم تطلب؟

سعل الشيخ ثانيةً، وهذه المرة طال سعاله الجاف. قال:

-أطلب منك الكثير. لكن ليس مقابل الكتب، فهي مجانية.

نظرت إلى عينيه الخاويتين محتارًا، وسألته:

-لماذا تعطيني إياها بلا مقابل؟

-لأن هذه هي الطريقة الوحيدة التي تحصل بها على هذه الكتب. أنا لا

أبيع الكتب.

توقعت منه المزيد، لكن من الواضح أنه ظنّ أن إجابته كانت كافية.

قلت بعد تفكير:

-أنت تخرجني. لا أعرف كيف أكافئك.

-لا عليك. ناولني الكتب لأضعها في كيس تحمله. ستمطر بعد قليل

وقد تبتل، ينبغي حفظ هذه الكتب من البلل.

رفعت بصري إلى رقعة السماء التي لا يجربها الجسر. كانت السحب قد بدأت تتجمع، لكن ما زالت السماء صافية نسبيًا ولا تنذر بالمطر. لم أقل شيئًا لأن الرجل العجوز كان واثقًا من كلامه. ربما يكون لفاقدي البصر القدرة على التنبؤ بالطقس، إضافة إلى السمع الخارق.

وضعت الكتب الثلاثة في كفه الممدودة. انحنى خلف عربته، وفتح باب خزانة صغيرة من جهته. تحسس بيده داخلها، ثم أخرج كيسًا مجددًا ملطخًا وبداخله الكتب الثلاثة. أو هذا ما ظننته في ذلك الحين. فلم أكتشف أنه وضع كتابًا رابعًا إلا بعد وصولي إلى المنزل. لا بد أنه وضعه في تلك اللحظة. لم تكن لديه فرصة إلا تلك اللحظة.

أمسكت الكيس بإصبعين حذرًا. وسررت إذ لم يكن العجوز يستطيع رؤية تعابير وجهي. قلت له:

-شكرًا جزيلاً. وداعًا. أتمنى أن نرى بعضنا مرة أخرى قريبًا.

ما إن تفوهت بالكلمات حتى أدركت فجاجة قولي.

أجاب العجوز متغاضيًا عن زلة لساني:

-وداعًا.

قررت وأنا أسير نحو المنزل أن أتخلص من الكيس الكريه في طريقي، لكن منظر السماء منعني من تنفيذ ما عزمته عليه. فعندما صعدت الجسر العظيم رأيت أن العجوز كان مصيبًا. فغيوم العاصفة تترامم قادمة من الغرب، ساحبة معها ستارًا من السيل الغزير. كان علي أن

أسرع بالعودة لأسبق هطوله، فلم يكن لدي الوقت كي أبحث عن سلة نفايات أرمي بها الكيس. ما أن دخلت منزلي حتى بدأ المطر في الهطول. كان باستطاعتي رمي الكيس في سلة النفايات في المطبخ، لكنني لم أفعل. فما كنت على أتم الاستعداد لفعله في الخارج صعب عليّ فعله في المنزل. أحسست بأني سأنتهك أحد المقدسات. لا يجوز أن نرمي الكتب في القمامة، حتى لو كانت نسخاً غير ذات قيمة كالتي أحملها. سوف أضعها في مكان محجوب عن الأعين. وهذا أقرب ما يكون إلى التخلص منها في القمامة، إلا أن ضميري لن يؤنبني حينها.

لم يكن الكتاب الرابع الذي ظهر عندما أفرغت الكيس يشبه الكتب الأخرى. فهو أولاً في حالة ممتازة، رغم أن الطبعة قديمة. قلبته بين يديّ، وأنا أنظر إليه بفضول وحيرة. ولم أدرك إلا بعد حين أن لا ذرة غبار مست يدي بسبب هذا الكتاب.

لم يحمل غلافه البني أي كتابة، لكن هذا ليس بمستغرب. فهذا الغلاف من القماش، وقد كان يحيط به على الأرجح غلاف ورقي ضاع مع الأيام. في منتصف الغلاف الأمامي ختم باهت يمثل ريشة كتابة، ومجبرة، وشيء يشبه ورقة ملفوفة من ورق الرق. وكانت أطراف الصفحات قد بهتت حتى شابهت لون الغلاف.

فتحت الكتاب. كانت الصفحة الأولى بنية اللون خالية، تليها صفحة بيضاء كُتبت في أعلاها بأحرف صغيرة مائلة «أصغر مكتبة». لم يتناسب

هذا العنوان مع مظهر المجلد ولا نسقه. يبدو أن من سمى هذا الكتاب كان متواضعاً. فالكتاب يستحق اسماً يبعث الهيبة. قلبت الصفحة فرأيت المفاجأة الأولى. كانت تلك الصفحة هي التي تحتوي عادةً على بيانات الكتاب، لكنها كانت خالية. أما الصفحة الثالثة فلم تحو سوى كلمة واحدة، وهي عنوان الكتاب كما أظن. لكن اسم المؤلف لم يكن موجوداً. طغى الشك على أفكاري وأنا أنظر إلى بياض الأوراق أمام عيني. عجيب... عجيب!

ثم خطر في بالي موضع قد أجد فيه معلومات الطبعة. بعض الناشرين يضعون تلك الصفحة في آخر الكتاب. إذًا يجب أن أتفحص نهاية الكتاب، رغم أن هذا لا يفسر غياب اسم المؤلف من بدايته. قلبت الكتاب على عجلة، ولاحظت وأنا أتصفحها أنها رواية عنونت فصولها بالأرقام لا بالأسماء. وعندما وصلت النهاية، اكتشفت أن معلومات الكتاب لم تكن موجودة هناك أيضًا. فبعد آخر صفحة من صفحات الرواية، توجد صفحة بيضاء واحدة، تليها الصفحة البنية الختامية، ثم الغلاف.

إذا فقدت تلقيت من العجوز طبعة غير معروفة، لكاتب غير معروف! لم أسمع من قبل عن كتاب يجمع بين غياب الاثنين، لكن طبعاً لم يكن هذا مستحيلاً. رغم أنني لست جاهلاً بعالم الكتب، فإن معرفتي ليست شاملة تامة. لكن ثمة مكان واحد يحوي جميع المعلومات عن كل الكتب المنشورة قانونياً: المكتبة الوطنية. أغلقت الكتاب ووضعت على مكتبي،

ثم فتحت حاسوبي.

كان موقع المكتبة الوطنية الإلكترونية يتيح لزائريه أن يبحثوا عما يريدون بسرعة، رغم ما تحويه من أعداد ضخمة من الكتب. كتبت المعلومات الوحيدة التي أعرفها في خانة «العنوان». وكنت واثقًا أن هذا البحث سوف يحل غموض اللغز لأن التفسير المنطقي الآخر، وهو أن الطبعة غير مسجلة، يقرب الموازين تمامًا بما لا يبشّر بالخير. صحيح أن مظهر الرجل العجوز كان رثًا بائسًا، لكنني أشك أنه يود التورط في بيع الكتب بطريقة غير قانونية. ولن يسمح له الباعة الآخرون المعتزّون بنزاهتهم تحت ظل الجسر العظيم أن يفلت بفعلته.

مرت نصف دقيقة تقريبًا، ثم ظهرت رسالة على الشاشة تنبأني أن فهرس المكتبة الوطنية لا يحوي أي مصنف بهذا العنوان. تنهدت بعمق، ومررت يدي اليسرى في شعري. بدأ الوضع يصبح سيئًا. ربما كنت مخطئًا في حكمي على الرجل العجوز. استرجعت في ذاكرتي أجزاء من حوارنا الوجيه كنت قد صرفت عقلي عن التفكير بها، رغم أن من الواجب أن تثير شكوكي.

لكن ما زلت لا أصدق أن الشيخ الكفيف صاحب عربة المثلجات كان غشاشًا. فحدسي الذي نادرًا ما يخطئ يدافع عنه بقوة. بقيت عيناى معلقتان بالشاشة التي ما زالت تعرض رسالة البحث الفاشل، وأنا أحاول أن أفكر بتفسير آخر عدا أن أعمالاً غير قانونية تجري في الخفاء.

إن ما يخفف من فداحة الأمر أن الكتاب كان هدية ولم يباع، ما يعني أن لا مكسب تحقق منه. إلا أن هذا طبعاً لا يسوّغ عدم وجود عنوان الكتاب ضمن مصنفات المكتبة الوطنية.

راودتني فكرة مستبعدة تماماً، لكنني كنت كالغريق الذي يتعلق بقشة. ربما أخطأت في كتابة العنوان. كنت واثقاً بأنني لم أخطئ، فقد أغلقت الكتاب للتو، والكلمة صغيرة بسيطة، لكن أحياناً تقع مثل هذه الهفوات العادية. ربما اختلف حرف واحد فقط، والحواشيب آلات دقيقة جداً. التقطت الكتاب البني من فوق المكتب وفتحته مرة أخرى.

ما رأيته في الصفحة الثالثة كان مستحيلًا! ارتفعت غصة في حلقي. لم يكن الاختلاف حرفاً واحداً. كان العنوان مختلفاً تماماً، ليست كلمة واحدة بل ثلاثاً رأيتهما على الصفحة. اهتز الكتاب وأنا ممسك به غير مصدق، حتى أدركت بعد حين أن يديّ هما التي ترتجفان. دسستها بين فخذيّ لأوقف ارتعاشهما. تمعّنت في تلك الكلمة الجديدة أحاول ما بوسعي أن أجد تفسيراً لهذا المستحيل، لكن خيالي خانني. لا يمكن لكتاب أن يبدّل عنوانه بنفسه! هذه حقيقة لا مرء فيها. لكن هذا ما حدث. أي سحر دسّه العجوز لي؟ ولماذا؟

لن أجد الإجابة بجلوسي مكتوف اليدين هكذا، أرمي بنظراتي الخائفة نحو الصفحة الثالثة. يجب أن أفعل شيئاً. لكن ماذا أفعل؟ أتفحص الكتاب بدقة؟ لقد تصفحته فقط في المرة الأولى. لو في الأمر حيلة فلن

أكشفها إلا بهذه الطريقة. ورغم هذا فإن كفيّ المتعرتين لم تحركا الكتاب البني. احتجت إلى كامل إرادتي كي أقرب يدي من صفحاته.

قلبت الصفحة. أخذني الدهول عندما وقعت عيناى على بداية النص في الصفحة الخامسة. كان الكتاب رواية كما توقعت، لكنها ليست الرواية التي فحتها قبل لحظات. فالفصول في هذه الرواية كانت تحمل أسماء لا أرقامًا. والأحرف أصغر حجمًا، والمسافات بين الأسطر أقرب. ما كنت أحمله بين يديّ هو كتاب ثانٍ مختلف تمامًا.

لم أحتمل هذا. رميت الكتاب بعيدًا عني كما لو كان شيئًا ساخنًا، وقمت فزعًا من على الكرسي. وقع الكتاب على لوحة المفاتيح فضغط على بعض الأزرار. اختفى فجأة موقع المكتبة الوطنية من على الشاشة، وأطلقت السماعات أزيزًا عاليًا متقطعًا.

لولا الصوت لما تجرأت على لمس الكتاب ثانية. لكنني لم أستطع احتمال الصوت. كان كالوقود الذي أججّ أعصابي الملتهبة. تقدمت بحذر كأنني سأمسك شيئًا قد يلدغني، وأبعدت الكتاب عن لوحة المفاتيح. توقفت الأزيز فورًا، لكن لم تعد الصورة إلى الشاشة.

وقفت في منتصف الغرفة بجانب الكرسي، تاركًا مسافة بيني وبين مكتبي، وحملت الكتاب أمامي. خامرني شعور بأن شيئًا ما سيحدث، لكنني لم أعرف بالضبط ما هو، وبالتالي لم أعرف كيف أتأهب لمواجهة. مرت الدقائق بطيئة مشحونة. وعندما لم يحدث شيء أدركت أن من

البلاهة أن أقف هكذا منتظرًا. يجب أن أبادر بالتصرف.

استعدت رباطة جأشي إلى حد ما، وعرفت أن أمامي خياران لا ثالث لهما. إما أن أعيد الكتاب إلى الكيس القذر، وأضيف إليه الكتب الثلاثة وأرميها جميعًا في الحال، ليس في سلة القمامة في مطبخي، بل في أبعد حاوية نفايات يمكنني إيجادها في الخارج، أو ربما أرميها في النهر رغم الأمطار التي ما زالت تهطل غزيرة. سوف أتححر حينها من سبب كل متاعبي. أو أفتح الكتاب ثانية.

لم يعجبني هذا الحل على الإطلاق. بل اقمشعر جسمي مما قد أجد فيه. تذكرت شعوري عندما اهتزت الأرض بزلزال في أحد الأيام، وكان أسوأ ما في تلك التجربة هي فقدان الأرض من تحتي لصلابتها. إن الأرض الثابتة تحت قدمي هي الشيء الذي أعول عليه في كل تقلبات الحياة. وأنا هنا أخاطر بزلزلة شيء أهم: الواقع.

لكن ما الفائدة الآن؟ فالواقع قد تززع من جذوره. وإن استطعت رمي الكتاب بعيدًا عن عيني فلن يهجر ذاكرتي. لن أستطيع الاستمرار في حياتي بعيشة راضية متظاهرًا بأن شيئًا لم يحدث. سأكون كمن يدفن رأسه في الرمال. إن عاجلاً أو آجلاً، سأرزع بحمل الأسئلة التي لم أعرف لها إجابات. إذًا في النهاية لا أملك أنا أي خيار.

فتحت غلاف الكتاب ببطء كأن شيئًا سيقفز منه. رغم أنني تصورت ما سأجده في الصفحة الثالثة، فقد فزعت قليلاً عندما رأيت العنوان

الجديد. كان العنوان هذه المرة كلمتين. ولم يكن ثمة حاجة لأقْلَب صفحات الكتاب كي أعرف أنها رواية ثالثة جديدة.

لكنني تصفحت الكتاب كي أتأكد من فكرة خطرت لي. قلبت الصفحات بسرعة حتى وصلت إلى النهاية. كان الخط كبيرًا هذه المرة، والأسطر متباعدة، والفصول تحمل عناوين وأرقامًا معًا. عدت إلى صفحة البداية بالطريقة نفسها، مقلِّبًا صفحات الكتاب. ولم يحدث أي تغيير. يبدو إذًا أن الروايات تتغير فقط عندما أغلق الكتاب. إن كان الكتاب مفتوحًا فإن النص لا يتغير.

أغلقت الكتاب ثم فتحته. فكري صائبة! بتأثير سحر ما أصبحت بين يدي رواية جديدة. ظللت أغلق الكتاب وأفتحه مبتسمًا فرحًا وأنا أرى النتيجة نفسها. صحيح أنني لم أقرب من حل هذا اللغز لكنني على الأقل عرفت ماذا سيحدث، وهذا ما خفف توتري. عجيب كيف أن من السهل أن نتقبل المستحيل إذا زال خوفنا منه.

ولكي أثبت لنفسي أنني ما عدت أخشى هذا الكتاب البني، أخذت أفتحه وأغلقه بسرعة مرات متتالية. ملأني الدهول وأنا أرى العناوين تتلاحق متغيرةً في الصفحة الثالثة كلما فتحت الكتاب. اجتاحتني حماسة غامرة كتلك التي يشعر بها الطفل حين يُعطى لعبة مسلية، تصدر مؤثرات غير عادية. أدركت حينئذ أن عنوان الكتاب كان مناسبًا جدًا. فهذه هي حقًا أصغر مكتبة، وصغرها بعدد مجلداتها لا بعدد مصنفتها.

وما أصغر من مجلد واحد؟!

ظلمت أفتح الكتاب وأغلقه أكثر من عشر مرات، ثم تجمدت حركتي فجأة وأنا أكاد أغلقه. هبط عليّ فجأة سؤال أحال سروري إلى فرع. ماذا يحدث للرواية بعد أن أغلق الكتاب؟ كل ما يمكنني الجزم به من اكتشافاتي حتى الآن هو أنها تختفي دون أي أثر. لا يظهر العنوان إلا مرة واحدة فحسب، أي أنني خسرت للتو أكثر من عشرة كتب بلا أمل في استعادتها.. بسبب تهوري!

لا يمكن أن أسمح لهذا الأمر أن يتكرر. فتحت الكتاب بيديّ الاثنتين بشدة كيلا يُغلق دون قصد. أخذت الأفكار تتسارع في عقلي في سباق محموم. كيف أحفظ شيئاً قصير العمر، كعمل أدبي لا يعيش إلا إذا كان الكتاب مفتوحاً؟ لم يجد عقلي إجابة. هذا أنا.. لا أجد التفكير تحت الضغوط. ولهذا لا أكتب أبداً إن حُدد لي موعد للتسليم.

كدت أسلم نفسي للغرق في بحر اليأس، لكن عندها خطر لي خاطر بديهي. كدت أضرب جبيني بيدي عقاباً لي على غبائي، لولا أن يديّ مشغولتان بإمسك الكتاب. الحل هو أن أنسخ صفحات الكتاب طبعاً! لم يكن هناك داعٍ للعجلة. يمكنني الانتظار لحين توقف المطر. فزخات الربيع لا تدوم، وهذه الرواية التي تضمها دفتي الكتاب في أمان طالما أبقيتها مفتوحاً. لكن سرعان ما نفذ صبري. أمسكت الكتاب بيد واحدة مفتوحاً، وهرعت إلى الردهة. أمسكت معظفي ومظلتي، واتجهت إلى

الصالة بسرعة. لقيت صعوبة في ارتداء معطفي لأن يديّ كانتا تمسكان الكتاب. خرجت من منزلي فألصقت المظلة برأسي، والمجلد البني تحت ذقني لأحميه من وابل المطر.

تطاير الماء رذاذًا من بين خطواتي المتسارعة على الرصيف المبلل، ولم أعبا بأن حذائي قد امتلأ بالماء بمجرد سيرتي لبضع خطوات، ولم أهتم بأن الماء قد أغرق طرفي بنظالي حتى وصل ركبتي. ومن حسن الحظ أن متجر القرطاسية الصغير الذي يحوي آلة نسخ لم يكن بعيدًا. دخلت وأنا أهز مظلتي خلفي لأبعد عنها البلل، فنظرت إليّ صاحبة المتجر في عجب. كان من الواضح أن المرأة لم تتوقع قدوم أي زبائن في هذا المطر الغزير. ولا بد أنها تساءلت أي ضرورة دفعت بي إلى متجرها في هذه الظروف، غير أنها لم تقل أي شيء.

قلت لها إنني أريد أن أنسخ شيئًا، ولوحت بالكتاب المفتوح في يدي. لم أقدم لها توضيحًا رغم أن الأدب يملي ذلك. وماذا كنت سأقول؟ عرضت عليّ بلطفٍ أن تنسخ الكتاب بنفسها، لكنني رفضت رفضًا حادًا خوفاً من أن يلمس المجلد شخص غيري. رفعت المرأة كتفها غير عابئة، وأشارت إلى آلة النسخ في الزاوية، ثم عادت إلى قراءة صحيفتها خلف منضدة المحاسبة.

وضعت الكتاب على سطح الآلة الزجاجي، وأغلقت غطائها البلاستيكي الثقيل، ثم ضغطت الزر الأخضر. مسح ضوء ساطع

الكتاب يميناً ثم شمالاً، وبعد لحظة خرجت نسخة من الصفحة الثالثة من فتحة جانبية. هذا ما كنت آمل أن يحدث، لكن ما خرج كان... لا شيء. ورقة بيضاء. قلبتها بين يدي راجياً أن تكون الطباعة من الجهة الأخرى، لكن الجانبين كانا فارغين. رفعت الغطاء وقلبت الكتاب. كان العنوان ظاهرًا لعيني، لكنه خفي في الآلة.

لاحظت صاحبة المتجر أنني أقلب الكتاب والورقة في يدي، فسألني إن كنت أحتاج مساعدة، أجبته بسرعة بأن كل شيء على ما يرام. ولكي أزيل شكوكها تابعت نسخ الصفحات. ظللت أفتح صفحات جديدة وأضغط الزر في أعلى الآلة، فتخرج الآلة ورقات خاوية تمامًا من أي كتابة. لم يكن باستطاعة المرأة من مكانها أن تراها، فأخففت بصرها إلى الصحيفة التي تقرأها، ظانّة أن زبونها غريب الأطوار قد فهم كيف تعمل الآلة.

خرجت بفائدة واحدة من هذا النسخ عديم الجدوى، وهي أنه منحني فرصة كي ألملم شتات ذهني بعد هذه المفاجأة الجديدة. إذًا فلا يمكن أن أنسخ صفحات الكتاب. أعتقد أن الشيء ذاته سيحدث لو أنني صورته بكاميرا، أو مسحته بالماسحة الضوئية. يجب ألا أضيع وقتي بتجربة ذلك. إذًا ماذا أفعل بهذه الأعمال الأدبية الذي لا تعمّر طويلاً؟ لا يمكن أن أترك الكتاب مفتوحًا طوال الوقت لأنقذ عملاً واحدًا، لأنني عندئذ أحرم نفسي من الوصول إلى بقية الأعمال الأدبية. ولو أنني

أردت الحصول على عمل آخر، فهذا المفتوح سيضيع إلى الأبد. لم أر مخرجًا من هذا المأزق.

تكوّنت في عقلي خاطرة سوداوية بعثت قشعريرةً في جسدي كله. ربما يكون هذا هو المقصد! ربما يكون الأمر كله حيلة حيكت عمدًا كي يورثني بهذا الكتاب. شخص خبيث يضمّر الشر تفتّق ذهنه عن «أصغر مكتبة». شخص وافته الوقاحة ليتظاهر بأنه شيخ أعمى محسن، يدفع عربة مثلّجات، ويوزع الكتب بكل كرم. إن أردت أن أنفذ من هذا الفخ فلا سبيل إلا بمواجهته مرة ثانية.

أخذت الأوراق الخالية التي قارب عددها الخمسين، وطويتها بالطول ووضعتها تحت ذراعي. ترددت لحظة بعد أن رفعت الغطاء البلاستيكي، ثم أغلقت الكتاب بسرعة، ودسسته في جيب معطفي الكبير. وماذا لو نقصت رواية؟ ما الفرق؟ دنوت من المنضدة، ووضعت عليها نقودًا تكفي لسداد حسابي وتزيد. غادرت بصمت، وأنا أشعر بنظراتها المتسائلة معلقة بظهري.

كان المطر ما زال مستمرًا، ولكنه قلّ حتى أصبح مجرد قطرات ترشها السماء. فتحت مظّتي، وحشّث خطاي أتبع طريقًا مختصرًا نحو الجسر العظيم. مررت بزقاق فرميت حزمة الأوراق الفارغة في أقرب حاوية دون أن أتوقف. لاحظت بينما أنا أجري أن السحب بدأت تنقشع وتتفرق، حتى رأيت وأنا أقترّب من وجهتي أن أشعة الشمس المختبئة

بدأت تتسلل من بين السحب.

كان جمع كبير من الناس واقفين تحت الجسر. وكثير منهم ممن لم يجلبوا معهم مظلة مثلي أول مرة قد وقفوا في طرف الجانب المغطى من الجسر، ينتظرون توقف المطر كي يرحلوا. كانوا يجربون عن نظري الجانب البعيد من الساحة حيث كان العجوز موقفاً عربته. شققت طريقي إلى منتصف الحشد، وقد قلت أعداد الناس فيه، لكنني أحسست أنني لن أجده هناك. فقد كان يقف تحت السماء لا يظلمه شيء عندما رأيته، فلا شك إذاً أن هطول المطر دفعه إلى أن يحتمي بمكان ما تحت هيكل الجسر المعدني العريض.

طافت عيناى المكان باحثاً عن أي أثر لعربة المثلجات القديمة. أنا واثق أن عيني ستجدانها فوراً لو أنها كانت موجودة. صحيح أن المساحة تحت الجسر كبيرة، لكن يستحيل أن يمر دون أن ألاحظ. أغادر العجوز في غيابي؟ هذا غير ممكن. أيستطيع أعمى يدفع عربة ثقيلة أن يسير في عاصفة رعدية؟ لا هذا تهور وخطر. إلا إذا كان العمى وكل ما ظهر به أمامي تصنعاً.

تجولت بين أكشاك الكتب لدقائق، لا أدري ماذا أفعل، وحنفي من الأمر يتزايد. ومن بين جيش التساؤلات الذي يحاصرني ارتفع سؤال واحد فقط. لماذا أنا؟ لماذا حدث هذا لي أنا من بين جميع الخلق؟ ما الذي يميزني عن جموع البشر المحتشدين في هذا المكان؟ ألاني كاتب؟

كاتب فقد القدرة على التأليف منذ فترة ليست بالقصيرة؟ ألا يكفي هذا عذاباً؟ لماذا أُعطيت هذا الكتاب؟

وجدت نفسي في سيري على غير هدى قريباً من البائع الذي تحدثت معه قبل اللقاء المشؤوم مباشرةً. فكرت أن أسأله عن العجوز. لا يمكن ألا يكون قد انتبه إليه. لكنني لم أسأل. إلقاء الأسئلة لن يجزّ عليّ إلا الوقوع في شرك التوضيحات والتفسيرات لشيء لا أملك له تفسيراً. بل قد اضطر إلى إخراج المجلد من جيبي لأريه إيساه، وهذا ما أريد أن أتجنبه بأي ثمن. لكن ثمة سبب آخر منعني من السؤال؛ شيء يرعيني أيها رعب. ماذا لو أن البائع قال إنه لم ير رجلاً كفيفاً يدفع عربة مثلجات؟ لم يعد هناك داعٍ لبقائي هنا، والجو قد تحسن كثيراً. وقد قلّ عدد مرتادي السوق تحت الجسر العظيم. اتجهت هذه المرة إلى منزلي ببطء، فلم يعد لدي سبب للعجلة. وقبل أن أبتعد كثيراً عن المكان بدأ أنفي يلتقط روائح غريبة. رائحة الأوزون هي ما شممتها أولاً، ثم تتابعت الروائح بعدها كثيفةً مركزةً في كل مكان، وقد أثارها المطر؛ رائحة الأوراق المخضرة فوق قمم الزيزفون، والحشائش اليافعة الرطبة، والدُّبال الذي يغطي الأرض في الحديقة الصغيرة، والأزهار المغسولة في الأصائص. حتى الماء المتجمع في برك كبيرة على الرصيف بدا لي أن له رائحة خاصة به.

وما بين الفينة والأخرى، أشم رائحة ضعيفة تتداری خلف هذه الروائح القوية، وقد بدت لي تلك الرائحة مألوفة. إما أنها موجودة في كل مكان

أو أنها تلاحقني. كانت رائحة كريهة كنتانة رائحة العرق، لكنها مع هذا مختلفة تثير في عقلي ذكريات شيء قاسٍ وشاق ومؤلم. حاولت فكّ شيفرتها ولم أنجح. لكن لم يضع تعبي هباءً. خطرت لي بالصدفة وأنا أفكر بالرائحة الغامضة فكرة كان يجب أن تراودني قبل تلك اللحظة. قبل أن أفكر بالنسخ طبعًا. أسرعت في السير حتى كدت أجري. أبعدت شاشة الحاسوب ولوحة المفاتيح عن مكتبي لأنني لن أحتاجها. كنت سأنجز عملي بشكل أسرع لو أنني استعملت الحاسوب، لكنني لا أكتب أبدًا بالحاسوب. أخرجت مفكرة كبيرة ظلت فارغة لوقت طويل. لم أبدأ في النسخ من الكتاب مباشرةً. داهمني الخوف عندما أمسكت بقلمتي من أن هذا لن يفيد. ماذا لو أن القلم لم يخلف أي أثر على الورقة رغم أنه جديد؟ لا أعلم. لكن ماذا سأخسر إن حاولت؟ لن تسوء الأمور أكثر مما ساءت.

لم أستطع كتم تنهيدة ارتياح زفرتها رثائي عندما ظهر عنوان الرواية بعد لحظات في رأس الصفحة الأولى.. واضح.. مقروء.. أغلقت مفكرتي للحظة ثم فتحتها. لم تحدث أي معجزة. ظلت الكتابة في المفكرة كما يجب أن تكون. قلبت صفحة الكتاب واستويت قاعدًا على الكرسي بارتياح. كتبت تحت العنوان «الفصل الأول»، ثم بدأت بكتابة الفقرة الأولى. أمامي عمل طويل منهك. فالرواية مطبوعة بأحرف متناهية الصغر، وبأسطر متقاربة جدًا. لكن لا راحة لمن احترف الكتابة، بل هو الشقاء

دائم في حياة الكاتب. والأمل والألم رفيقاه؛ أملٌ في التمتع بالراحة في مهنته، وأملٌ لأن هذا لن يتحقق أبدًا. وهذا ما يجعل سعادة النهاية عظيمة، فعندما أنسخ الصفحة الأخيرة سوف أغلق الكتاب. وبهذا لن تعيش الرواية إلا في مسودتي. ومن سيلومني عندها إن أضفت اسمي فوق العنوان؟

المكتبة النفيسة

المكتبة النفيسة كالمعدة؛ يجب أن يحرص الإنسان أشد الحرص على ما يدخل في جوفها. لا ينبغي أن يدخل المكتبة النفيسة إلا الكتب اللائقة بها. وإن تسلل كتاب إلى مكتبة نفيسة وهو غير جدير بها، فإن هذا يكون كما لو أنك ابتلعت باستهتار شيئاً غير صالح للاستهلاك البشري. سوف تشعر طبعاً بالاشمئزاز والغثيان. وهذا بالضبط ما شعرت به عندما دخلت مكتبتي فوجدت كتاباً لم أضعه فيها. غلبني الاشمئزاز حتى إنه أخرجني تماماً السؤال المنطقي في هذا الموقف: كيف وصل ذاك الكتاب إلى هنا؟ لكن السؤال البديهي الذي يطرأ في ذهن الشخص الذي تحتوي معدته على شيء ضار ليس كيف وصل هذا الشيء إلى معدتي، بل كيف أتخلص منه. فالصحة أهم بكثير من إرضاء الفضول البحت.

أمسكت الكتاب بإصبعين، فسحبته من مكانه. لم يخامرني شك في أنه دخيل على مكتبتي، وإن لم يكن ثمة سبب سوى حجمه فذلك كافٍ. وهذا ما لفت انتباهي إليه أساساً، وهو قابع في الرف المزدهم الذي يغطي جداراً كاملاً من جدران مكتبتي. لم أحتقر شيئاً في حياتي كاحتقاري للكتب ذات الغلاف الورقي. إن الغلاف الورقي أسوأ إهانة يمكن توجيهها إلى شيء عظيم لا ينبغي له إلا التبجيل والإجلال في كل

الأحوال. لا أحد سوى الجهلة والسفهاء يدّعون أن من الخطأ أن تحكم على الكتاب من غلافه. يقولون إن العمل الأدبي العظيم يظل عظيمًا بغض النظر عن طريقة تجليده. كلام فارغ! يجب أن يعكس التغليف مكنون الكتاب. أترضى بأن تغلف جوهرة بأوراق جرائد قديمة مثلاً؟ وما العمل الأدبي الرفيع إن لم يكن أجمل جوهرة يحملها المرء؟! لم أسمح للعنوان بأن يخدعني. كان العنوان يليق بطبعة غالية مجلّدة تجليدًا فاخرًا، وبأحرف مذهّبة، أما وهو على هذه الطبعة التافهة ذات الغلاف الورقي فهو تدنيس وأيما تدنيس. وماذا نتظر من معدومي الضمير الذين يغلفون كتبًا بالورق؟! لا تقديس للكتب في قلوبهم، ولن يتورّعوا عن استغلال أفضل الأسماء وأعظمها، إن رأوا أنهم سيجنون من ورائها مالاً الحق أنني لا أعرف إلى أين سوف ينتهي بنا المطاف إن استمرينا في تهميش كل شيء والعبث به بهذه الطريقة. هرعت نحو المطبخ مادًا ذراعي أمامي، حاملاً ذلك الشيء بعيدًا عني. ضغطت على دواسة سلة النفايات الموجودة تحت المغسلة، ثم أفلتت من بين إبهامي وسبّابتي. أصدر الكتاب الورقي صوتًا مكتومًا عندما وقع في القمامة حيث ينتمي. ضربت كفي ببعض أنفص عنهما أي أثر له. يجدر بالمرء ألا يكون مرهف الإحساس في هذه المواقف، بل حازمًا صارمًا. عليه أن يعامل هذه الأشياء كما يعامل حشرة ضارة، كما يعامل براغيث الفراش أو الصراصير. لا تنزل عليها رأفة ولا رحمة.

رجعت إلى مكتبي مطمئن البال، لأجد مفاجأة مزعجة تنتظري. رميت الكتاب ذا الغلاف الورقي منذ ثوانٍ، ورغم هذا أراه الآن منتصبًا حيث وجدته قبل لحظات: في مكتبي! تصاعدت الدماء إلى وجهي. ما معنى هذا؟ من قعر القمامة إلى رف المكتبة؟! لم يكتفِ الكتاب بأن يتسلل إلى مكان لا يحق له الدخول إليه، بل إنه أفسد ولوث كل شيء حوله. يا للدناءة!

خلعت رداء الحذر، وقبضت على الدخيل، فزعت من مكانه بقوة أوقعت الفوضى في الكتب المرتبة ترتيبًا دقيقًا. رغم أنني لا أطيق أن تكون كتبي مبعثرة على الأرفف، لكنني سأؤجل ترتيبها حتى أتولى أمر هذا المتطفل وأتخلص منه إلى الأبد. لم أتردد لحظة. فتحت الكتاب في منتصفه تقريبًا، وفعلت شيئًا لم أفعله في حياتي قط: مزّقت الكتاب نصفين. لكن حتى هذا لم يفلح في إخماد سورة الغضب التي تحدث في قلبي، فظللت أمزّقه بعنف لم يهد.

تناثرت الصفحات الممزقة على السجادة. كانت تلك الفوضى سثير انزعاجي في الظروف العادية، لكنها في تلك اللحظة لم تضايقني. الفوضى كانت مثل الحطب الذي أضرم نار غضبي. فقدت أي سلطة كنت أملكها على أعصابي. جلست على الأرض، وبدأت أقطع الصفحات إلى قطع صغيرة جدًا، فأصبحت كالقصاصات التي تُرمى في الاحتفالات. ولم أتوقف إلا عندما نالت الصفحة الأخيرة المصير ذاته على يدي. وعندما لم يبقَ شيئًا أنفَس فيه غضبي الشديد، بدأ الهدوء

يستقر في صدري.

شعرت بالخجل مما فعلت، وأنا أنظر إلى قصاصات الأوراق المبعثرة على الأرض. ليس من طبعي أن يفور غضبي بهذه الطريقة. لكن الأسوأ مما فعلت هو ما شعرت به وأنا أفعله. شعرت ببهجة تصل إلى درجة السعادة. سألت نفسي إن كنت قد فقدت صوابي. لا أنكر أنني شعرت بالإساءة والاستفزاز، بل أستطيع أن أقول إن عدوانًا عظيمًا قد وقع عليّ، لكن هذا ليس مسوعًا لما فعلت. يجب أن يسيطر الإنسان على أعصابه. كيف سيكون حالنا إن نحن أطلقنا العنان لفوراتنا وثوراتنا؟ وفوق هذا فقد سيّئ فوضى لا أقبلها. أنا الذي أعتز كل الاعتزاز بحبي للترتيب والنظافة. تنهدت ونهضت عن الأرض. فتحت باب خزانة الردهة، وأخرجت المكنسة الكهربائية، ثم عدت إلى المكتبة. استغرق تنظيفي الدقيق وقتًا غير قصير، كما لو أن المكنسة ستمحو آثار تصرفي القبيح. اشتدّت سخونة المكنسة فأطفأتها. فصلت خرطومها وأعدتها مكانها في الخزانة، ثم قررت أن أستحمّ بعد هذا التعب.

خرجت من الحمام نشيطًا هادئًا. كنت أطمئن نفسي أنني مررت بتجربة سيئة وأنها انتهت، وأن أفضل ما يمكنني عمله الآن هو أن أنسى الأمر تمامًا. ولماذا أنقل عقلي في التفكير بطريقة وصول الكتاب إلى المكتبة؟ هذا لا يهمني أبدًا. لن تزيدني معرفة الإجابة إلا ثقلاً على كاهلي، كما أنني لا أستبعد أنني لن أعرف الإجابة أبدًا. خلّصت نفسي الآن من

الكتاب المزعج، ولم يعد للأمر أهمية.

لكن آمالي وُثدت وهي صغيرة. من لمحة واحدة فحسب من باب المكتبة رأيت أن متاعبي بدأت من جديد. كان الكتاب سلبياً كاملاً، منتصباً هناك بين مجلدين قيمين كأنه يسخر بي. احمرّ وجهي سخطاً ثانية، فأغلقت عيني وتنفست بعمق، وأنا أهز برأسي مفكراً.

ظننت أن غضبي سينال مني مرة أخرى. لكن ما ساعدني على أن أكبحه هو تخوفي مما قد أفعل إن أعماي الغضب. لن يكون العمى في هذه الظروف حليفاً موفقاً. يجب أن أكون هادئاً متزنًا. لقد جرّبت القوة ولم تنفع. والآن يجب أن أجرّب طريقة أذكى. يجب أن أخطط لما سأفعله. فإن لم تسحق غريمك بقوتك، فاغلبه بذكائك.

من المؤسف ألا تكون لدي خبرة في هذه الأمور. لم أفكر يوماً كيف أتخلص من أي كتاب. فحتى هذه اللحظة لم أعرف إلا اقتناء الكتب، حتى أصبت مهارة وبراعة في هذا المجال، ومكتبتي خير برهان. كيف أتخلص من كتاب؟ وليس أي كتاب عادي؛ كتاب يرفض الاختفاء ويتهادى في رفضه، كتاب يتحداني بوقاحته. جهلست على الكرسي المقابل لرف الكتب ذاك، وأخذت أحدق بكعب الكتاب الدخيل القصير الهزيل. بدأت أصابع يدي اليسرى تمسح على حاجبيّ كعادتي عندما أغرق في التفكير العميق.

لاحظ لي مقارنة غريبة بعد تفكير قصير. لو أنني قررت أن أنتحر

لوجدت نفسي واقعًا في حيرة ماثلة، ولن أعرف ماذا سأفعل بالضبط. أنا واثق أنه ليس من السهل على الإنسان أن يقتل نفسه، رغم أن الفكرة قد تبدو سهلة. لو أنني قررت الانتحار، فإن في جعبتي مخزون وافر ومتنوع من التجارب الانتحارية السابقة، خاصةً التي نجح منفذوها في إنجازها. ربما أستطيع أن أطبق إحدى وسائلهم على الكتاب ذي الغلاف الورقي.

راقت لي الفكرة، وبدت ممكنة التنفيذ. كل ما بقي هو أن أختار الطريقة. درست الطرق الكثيرة التي خطرت في ذهني، ثم قررت أن الغرق هو أفضل وسيلة. لو اعترمت الانتحار فكنت سأختار الغرق. أولاً الموت غرقًا لا يخلف دمًا، وأنا أرتعب من الدماء بشكل يفوق الوصف. ثانيًا تُقبض حياة الغريق تحت الماء، وليس على مرأى من الشهود، فلن تصدم أحدًا بمنظر موتك. وثالثًا، في الغرق لمحة من الرومانسية. كم عاشقٍ مغرمٍ في أعظم قصص الأدب أنهى حكايته بالغوص الأبدي.

لا أحتاج لتنفيذ عملية الغرق إلا شيئين، أحدهما عندي في المنزل. ذهبت إلى المخزن، ونزعت الغطاء عن الصندوق الكرتوني الكبير الذي أحفظ فيه الأدوات والمعدات المختلفة، وأخرجت لفه حبال كبيرة. كان الحبل رقيقًا فلا يمكن أن أستخدمة لنفسي، لكنه سيكون ممتازًا لذلك الكتاب اللعين. قطعت منه أكثر مما أحتاج من باب الاحتياط.

أما الشيء الثاني فكان يجب أن أخرج من منزلي لأبحث عنه، رغم أني لا

أعلم أين أبحث عنه. أين أجد حجرًا كبيرًا في وسط المدينة؟ لا يمكن طبعًا أن أكسر قطعة من حجارة الرصيف، أو واجهة أحد المباني. قد تكون الحديقة العامة هي المكان الوحيد الذي أجد فيه حجرًا، فقررت الذهاب إلى هناك. وضعت الكتاب والحبل في حقيبة قبل أن أخرج. كان من الممكن أن أضعهما في جيبي، لكنني سأحتاج إلى الحقيبة لحمل الحجر. سيكون منظري سخيًا ومريبًا إن رأني الناس أسير في الشوارع أحمل حجرًا كبيرًا في يدي.

لم يكن سهلاً أن أجد حجرًا في الحديقة. كانت الأحجار أقل مما توقعت، وكان يجب كذلك أن أتحين الفرصة المناسبة لألتقط الحجر دون أن يلاحظني أحد. وجدت حوضًا مستديرًا من الأزهار في منتصف مرج أخضر، تحيط به قطع من الأحجار المكسورة مدفونٌ نصفها في الأرض. اضطررت إلى الانتظار فترة طويلة إلى أن تأكدت من اختلائي، ثم تطلب اقتلعه جهدًا شاقًا. حتى إنني لم أجد وقتًا كي أنظف نصفه السفلي من التراب. وضعته مستعجلًا في حقيبتي وابتعدت عن المكان، مخلفًا ورائي حفرة في حلقة حجارة الحوض، تشبه الفجوة التي يخلفها ضرس مخلوع في الفم.

وصلت إلى الجسر لاهث الأنفاس. كان الحجر أثقل مما يبدو، حتى اضطررت إلى حمل الحقيبة تحت ذراعي. وقفت في منتصف الجسر، لأن الماء في تلك الناحية كان عميقًا وجريانه جارفًا. ما غرق في تلك الناحية

لا يعود إلى السطح أبدًا. لكن اكتشفت أن تنفيذ مهمتي لن يكون يسيرًا. فرغم قلة العابرين فإن السيارات المازّة كانت كثيرة، ومنها سيارات الشرطة. يجب ألا ألفت الانتباه لنفسي.

جلست على الأرض ووجهي من ناحية الحاجز، ثم أخرجت الحجر من الحقيبة. كنت أدعو ألا ينتبه أي شخص عابر في الطريق إلى ما أفعله. ومن يراني على تلك الوضعية سيظن على الأرجح أني معتوه أو سكران، لكنه لن يفكر أنني سأنتحر. والناس على أي حال لا يلقون بالألما يجري خارج سياراتهم. ربطت أحد طرفي الحبل الرفيع حول الحجر بشدة، والطرف الآخر حول الكتاب.

وقفت بعد ذلك ووضعت الحجر فوق الحاجز. لم أسقطه فورًا، بل وقفت ساكنًا تمامًا أظاهر بأنني سائح يستمتع بمنظر النهر من أعلى الجسر. وعندما حانت لحظة لم تمر فيها سيارات كثيرة، دفعت الحجر والكتاب معه. استغرق سقوطهما وقتًا أطول مما ظننت، والصوت الذي نتج عن ارتطامهما بسطح الماء كان عاليًا. ضرب الحجر الماء فأحدث طرطشة عالية، وسحب الكتاب معه كأنه ذيله.

لو أن شخصًا كان يقف على ضفة النهر القريبة من الجسر فسوف يلاحظ ما فعلته. لذا ابتعدت بسرعة عن مكاني، كيلا يربط أحد بيني وبين الشيء الذي سقط في الماء. بعد أن ابتعدت مسافة لا بأس بها تحوّل خوفي إلى راحة بالغة ومعنويات مرتفعة بسبب نجاح مهمتي. كانت

يادي متسختين ومعطفي قذراً من نبش الأرض، لكنني لم أعر ذلك اهتماماً. لقد تخلصت من الكتاب... هذا هو ما بهم. فليرقد غير مأسوف عليه، مدفوناً في الوحل في قاع النهر.

لكن بدلاً من أن يكون الكتاب حيث جرّه الحجر، وجدته ينتظري في مكتبي حالما وصلت المنزل. لم يكن مبللاً ولا موحلاً، بالعكس كان نظيفاً جافاً. لم يملكني الغضب هذه المرة كما حدث قبلها. قررت باستسلام أن الأمور تجاوزت الحد. ولكل شيء حده، وليست الفظاظة ولا الوقاحة استثناءً من هذه القاعدة. كيف يدوخي كتاب ذو غلاف ورقي وأحتر فيه؟! أصبحت المسألة مسألة شرف وكرامة.

تقلّبت بقية طرق الانتحار في خيالي، محاولاً بجهد أن أتمالك أعصابي، وأنا أنظف نفسي في الحمام. إن القفز من الأماكن المرتفعة هو الخيار الثاني المفضل بين المنتحرين، وفي النهايات الأدبية. كم من بطل في الروايات اختار موته بهذه الطريقة. سوف يكون هناك دماء ولا شك، وكذلك شهود مصدومون من المنظر المفزع، لكن لا مناص من حدوث ذلك. ضميري ارتاح الآن. فلو أنني لم أجرب الغرق أولاً لكّلت اللوم لنفسي. فلا لوم عليّ الآن بسبب فشل تلك الطريقة.

لم تكن الخطة الجديدة تحتاج تدابير مطولة. أخذت الكتاب من الرف مرة أخرى، وارتديت معطفي غير مبالٍ ببلله. لولا نفاذ صبري لكنت جففته قليلاً بمجفف الشعر. يجب أن أضع حدًا نهائيًا فوراً لهذه المهزلة.

ما زال الكتاب يثير أعصابي مرة تلو الأخرى، وهذا أمر لا تحمد عقباه لرجل مثلي يعاني من ارتفاع ضغط الدم.

قررت أن أصعد إلى سطح أعلى مبنى في المدينة، لأن هذا هو أفضل موضع لأداء مهمتي، رغم أن أي مبنى أقل ارتفاعاً سيؤدي الغرض. كان على سطح المبنى منصة لزوار للمراقبة، وعندما تكون الرياح هامة كما هي اليوم فإنهم يسمحون للزوار بأن يطلّوا منها. كان يحيط بالمطلّ حاجزاً عالياً من الأسلاك، ليمنع سقوط أي شخص، عمداً أو بغير عمد، إلى حافته المحتوم من ارتفاع شاهق، وأكثر من ثلاثين طابقاً. لو كان الانتحار نيتي لما كان الأمر سهلاً، لكن قتل كتاب بغلافه الورقي سيكون أيسر

ومع هذا لم تتعد المصاعب عني كثيراً. فالشخص الوحيد الموجود على سطح المبنى كان حارساً يرئدي زيّه الرسمي. لو أن هناك زواراً آخرين، ولو أن معطفي لم يكن في مقدمته بقعة كبيرة، لصرّف الحارس انتباهه عني. لكنه، وحالي كذلك، لم يرفع عينيه عني قط، مما أعاقني وصعب عليّ مهمتي. قضيت عشرين دقيقة تقريباً أدور حول المنصة، أتناظر بالتفرج على مناظر المدينة قبل أن تتاح لي فرصة التنفيذ.

شخص ما اتصل بالحارس عن طريق الراديو اللاسلكي. وبينما هو يتلفت يمنة ويسرة، يبحث عن أفضل مكان للاستقبال، أخرجت الكتاب من جيبي، وقذفته من فوق السور. لم يلاحظ الرجل. انتظرت

حتى أنهى مكالمته، وأومأت برأسي له محيياً وأنا أبتسم ابتسامة عريضة، ثم اتجهت نحو المصعد. كاد الفخر والفرح يطيران بي. وهل هو إنجاز بسيط أن تغلب محترفاً بذكائك؟

تخيلت وأنا أصل الدور الأرضي أنني سأجد حشداً من الناس متجمعين حول الكتاب الصريع. لكنني لم أجد أحداً. وجدت الشارع يعج بالناس المنهمكين بأشغالهم. أهذه الدرجة وصلت بهم اللامبالاة؟ ألا يهتمون بمصير كتاب؟ حتى لو كان هذا الكتاب مجرد كتاب مغلف بورق مقوى؟ ثم أدركت أنني اتهمت العابرين ظلماً. كيف لهم أن يظهروا تعاطفهم في حين أن لا شيء وقع؟ لم أجد الكتاب على الأرض رغم أنني بحثت في كل ناحية.

عدت إلى المنزل تسحقني نبوءة سوداء تحققت حالما دخلت إلى مكتبي. وجدت الكتاب، كما وجدته في كل المرات الماضية، ينتظرنني في المكان عينه بين أرفف المكتبة. إن هذا العناد شيء مخزٍ حقاً!

لم يترك لي الكتاب خياراً آخر. لن أتعامل معه برفق بعد الآن. ومخيلتي تزخر بوسائل انتحارية أشد دموية من تلك التي جربتها. اخترت أحدها. إن كانت هذه الوسيلة تليق بامرأة من أرقى بطلات الأدب فسوف تليق ولا شك بكتاب وضع كهذا. سحبت الكتاب القبيح، واتجهت مباشرة إلى محطة القطار.

لم يُسمح لي بالوصول إلى رصيف القطارات دون تذكرة، فاشترت

تذكرة إلى أقرب وجهة، رغم أنني لن أسافر إلى أي مكان. نظرت إلى جدول مواعيد القطارات لأعرف إلى أي رصيف سيصل القطار القادم، ثم اتجهت إليه. ابتعدت عن الركاب الذين ينتظرون القطار حتى لا يكون هناك شهود. وصل قطار بعد حوالي عشر دقائق، يجير خلفه سلسلة طويلة من العربات. تركت العربتين الأوليين تمران، ثم أشحت وجهي بعيداً ورميت الكتاب تحت عجلات العربة الثالثة.

راودتني نفسي بعد أن مرّ القطار أن أنظر إلى القضبان، لكنني قاومت. لم أكن لأحتمل المنظر المريع؛ منظر بقايا الكتاب الصغير الممزق. صحيح أن الكتاب كان يستحق أن يختفي من الوجود، لكنني مع هذا أشفقت عليه قليلاً. ما كان يجب أن تصل الأمور إلى هذا الحد، لكن اللوم لا يقع إلا على الكتاب. لم يعد للتفكير في الأمر الآن فائدة على أية حال. ولا أريد أن أطيل البقاء هناك بلا سبب كيلا تُثار الشكوك حولي.

عندما وصلت إلى المنزل هذه المرة لم أتفاجئ أبداً عندما وجدت الكتاب في المكان الذي لا ينتمي إليه. وكان سليماً تماماً. لم تتضرر صفحة واحدة منه. وماذا كنت أتوقع؟ في الحقيقة، كنتُ سأندesh لو لم أجده هناك. تبخرت كل عواطف الشفقة عليه، وحل مكانها بغض عميق. لم أستطع حتى أن أنظر إليه. إنه لا يستحق أن يكون معي في نفس الغرفة.

قيّدت الحيرة عقلي، ولم أدري ماذا أصنع، فاخترت الذهاب إلى المطبخ لأعد لنفسي طعاماً. أنساني الركض في أنحاء المدينة طوال اليوم

للتخلص من الكتاب تناول أي طعام. قرقرت معدتي، ومنعنتني آلام الجوع من التفكير بما يجب أن أفعله. فرشت الطاولة، ووضعت عليها طبقًا، وسكينًا، وشوكة، وملعقة، ومنديلًا، ثم فتحت الثلاجة. كانت الخيارات أمامي محدودة؛ قطعة جبن جافة، وسجق مأكول نصفه، ونصف مرتبان خردل، وليمونتان. يجب أن أذهب إلى محل البقالة.

خطرت في ذهني فكرة وأنا أغلق باب الثلاجة. لم آخذها على محمل الجد في البداية. فالأفكار الحمقاء تخطر في بالي من حين لآخر، كما تخطر في بال الجميع. حاولت أن أبعدھا عن عقلي، كما أفعل في هذه الظروف، لكنها تشبثت بي. وكلما تمسكت بي قل تعجبي من غرابتها. أدركت أخيرًا أنني وجدت الحل الحقيقي الوحيد لمشكلتي. وددت أن أصفح جيني. طبعًا! لماذا لم أفكر بذلك من قبل؟

ذهبت إلى مكتبي، وأخذت الكتاب من الرف، ثم عدت إلى المطبخ. وضعت على الطبق ثم جلست، وأدخلت المنديل في طرف ياقتي. أزلت أولاً الغلاف بالشوكة والسكين، كأنني أزيل قشرة أو لفافة. كان العنوان المكتوب على الغلاف يعدني بمتعة حقيقية، لكن لا يمكن أن يعتمد المرء على نزاهة من أصدر كتابًا كهذا. ومن يدري أي مصائب تختبئ لي بين صفحات كتاب عنوانه «المكتبة»؟

رأيت من صفحة المحتويات أن الكتاب مقسم إلى ستة أجزاء. أعتقد أن لكل جزء طعامًا مختلفًا، ولهذا قررت ألا أتناولها جميعًا في وقت واحد.

قطعت كل جزء على حدة. فكرت قبل تناول وجبتي فيما إذا كان من المستحسن أن أضيف إليها البهارات. نظرت إلى الغلاف من جانبيه أملاً أن أجد تعليمات أو نصيحة في هذا الشأن، لكنني لم أجد شيئاً. فقررت ألا أغامر بالتجربة كيلا أفسد الوجبة. وبما أنني لا أعرف أيضًا ماذا أشرب معها اخترت شرب الماء. لا يمكن أن يفسد الماء شيئاً.

ذكرتني «المكتبة الافتراضية» بسلطة روسية متقنة الصنع، رغم أن المايونيز فيها أكثر مما أحب. أما «المكتبة المنزلية» فكانت كحساء ثقيل أضيفت إليه شعيرية وقطع كبيرة من لحم البقر. كانت ساخنة جدًا فنفخت في الملعقة. «المكتبة الليلية» كانت أقرب إلى الفلفل المحشو بنسب متوازنة من اللحم والأرز، وهذا هو سر نجاح هذا الصنف. أما «مكتبة الجحيم» فكانت فطيرة كرز لذيذة. لا أشتهي عادة الحلويات، لكن هذه كانت استثناءً. أما «أصغر مكتبة» فكانت القهوة بالكريمة. كنت أفضل احتساء شراب أخف، لكنني لن أكون متزمتًا.

لم أتخيل أي طعام لذيذ قد يأتي بعد هذا. ما زالت أمامي القطعة الأخيرة من الكتاب في طبقي: «المكتبة النفيسة». كنت قد شبعت، لكن لم أرد أن أترك شيئاً. كما أن فضولي لا يمكن قمعه. وضعت لقمة صغيرة في فمي بحذر، وبدأت أمضغها. شعرت أن الطعم ليس غريبًا، رغم أنني لم أستطع أن أميز ما إذا كان طعمها عاديًا، أم لاذعًا، أم حلواً، أم حامضًا. بل كان كل هذه النكهات مجتمعةً.

تابعت الأكل يدفعني الطموح في اكتشاف ذلك الطعم. كنت واثقاً أنني قد ذقته من قبل. أحببت ذلك الطعم أكثر من بقية الأصناف. ابتلعت آخر قطعة بسعادة غامرة، لم يعكرها إلا أنني لم أعرف بعد ماذا أكلت. لكنني لم أدع تلك الحيرة تفسد مزاجي المعتدل. لقد حققت هدفي. لم تبَقَ قطعة من «المكتبة» في طريقي.

نهضت من الكرسي متجهاً إلى مكتبي. لم أشعر بأي خوف حيال ما سأجده فيها. قد يستطيع الكتاب ذو الغلاف الورقي أن يعود من بقية الأماكن، لكنه لن يعود من مكانه الحالي. فوجوده في داخلي حقيقة لا ريب فيها. فتحت الباب على مصراعيه، وابتسمت بانتصار لما رأت عيناى ما رأته. لا وجود للدخيل القذر في مكتبي النفيسة.

فهرس المحتويات

5	مقدمة الطبعة العربية
8	عندما تأكل من مكتبك ستجدها أمامك
13	المكتبة الافتراضية
27	المكتبة المنزلية
43	المكتبة الليلية
65	مكتبة الجحيم
79	أصغر مكتبة
103	المكتبة النفيسة

ما يجعل نص "المكتبة" مختلفاً هو الغرض الذي تنافسه، إنها نص خالص في مديح الكتب والمكتبات يتعالى على النقاشات الضارية اليوم على جدواها كضرورة في بيوتنا وفي مدارسنا ومدننا، لكننا بعد الانتهاء من هذا العمل الذي يقرأ مراراً، نتمنى أن نفع على أعمال أكثر، علّنا نطعم بها مكتباتنا لتصبح نموذجاً للمكتبة النقيسة ونضمن لهذا الكتاب قدراً متواضعاً من الخلود. لأننا هكذا بالتحديد كما يقول ألبيرتو مانغيل، تمارس من خلال القراءة طقس انبعاث، مرجحين بالمكتبة كنص جديد إلى كوننا العربي. مكتبتنا العربية .

طارق الخواجي



Design by
Mahdi Abdu